علي الجارم

شاعر العروبة

دكتور محمد رجب البيومى



الناشـــر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٥٣٤١ / ١٩٩٨
الترقيم الدولى : 3 - 432 - 270 - 977
جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الأولى : محـرم ١٤١٩ هـ ـ مايـو ١٩٩٨م .

٥ علــى أجـــــارة

علي الجارم

شاعر العروبة

دكتور محمد رجب البيومي

الناشر
الدار المصرية اللبنانية



المحتويات

الشعر ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .
والشعراء هم أصحاب الرأى والتعبير على مرِّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر ـ كما يصنعون فى الأفراح ـ لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفاخِر بمآثرِهم والمُمجِّدُ لذكرهم . .

وكان العرب لا يهنئون إلا بغلامٍ يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معًا .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيُّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

ـ فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

ـ ويبدأ العصر الإسلامى منذ ظهور الدعوة . . وينتهى بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

ـ ويبدأ العصر الأُموى منذ ولاية معاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

ـ أما العصر العباسى الأول فيبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بنى بويه عام ٢٣٤ هـ .

ـ ويبدأ العصر العباسى الثانى منذ قيام دولة بنى بويه حتى هجوم المغول علٰى بغدادسنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

ـ ثـم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد على حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهى بقيام دولة وسقوط أخرى . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة ـ كما تتغير الظروف السياسية ـ وإنما يعنى هذا التقسيم أن ملامح الأدب فى عصر ما تستكمل مقوماتها فى ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى فى عصر تالٍ . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة فى ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوتهم ضائعاً فى زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثَمَّ تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورُؤَاهُم وتجاربهم ، فتجاوزوا سَمْتَ العصر ، واخترقوا حاجِزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شامخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنسانى ، على حين أسدل الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، وطواهم فى جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا فى التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارىء المعاصر ـ فى زحام الحياة الضاغطة المهمومة ـ فى حاجة ملحَّة إلى الاقتراب من عالم الشعر ـ قديمه ومعاصره ـ فى أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكى يقف على عظمة هذا الفن العربى الذى تقدَّمَ كُلَّ شىء ، وأحرز السبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هى جزء من عظمة التاريخ العربى والحضارة العربية . . وهى أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع فى السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ،فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا فى باب كل عصر نطرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التى تمثله خير تمثيل .

وآثرنا فى خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئين . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد ـ بقدر الإمكان ـ عن المناهج الأكاديمية التى قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسَّرد والنص الشعرى . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . وتقريب القارىء الشاب إلى عالم الشاعر الإنسانى والفنى معاً . . بحيث يخرج القارىء من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها فى مسيرة الشعر العربى . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن فى إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء وشعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية فى هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين ، باعتبار أن القارىء المعاصر قريب إلى حسّ هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقرى إلى العصور السابقة ، وقد تسلح القارىء بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور فى شغف وإقبال .

رابعاً : ألاَّ تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم فى بيئة بعينها ، وإنما هى تنظر إلى خريطة الشعر العربى من المحيط إلى الخليج فى وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارىء المعاصر هذا الحسّ العربى الممتاز الذى لا يدانيه حسّ آخر فى أى منطقة من العالم .

. . . .

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاصَ والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلان بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك فى نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم فى إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد .. حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذى نتمنى أن يكون مختلفاً عن أى منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوى المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر .. فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خَلاَّق متفانٍ وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارىء الشاب .. هذا العمل الذى يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

على الجارم جديد بسفر ضخم يتحدث عن مجالاته المختلفة فى ميادين التربية والتأليف والتحقيق ، والبحث الأدبى ، والقصص التاريخى ، والنثر الفنى المطبوع ولكنّ الحيّز المقدر لهذا الكتاب ، لايفى بغير موضوع واحد ، وقد اخترتُ الجارم «الشاعر» مجالاً للحديث الموجز الدّال ، وأقول الحديث الموجز الدَّال ، لأن تحليل قصائد الشاعر الكبير ميدان يتسع لمئات الصفحات ، وحسبى أن أشير هنا إلى بعض ما أعنيه ، وفيه كفاء .

لقد كان من العجيب أن تصدر الدراسات المبسوطة عن شعراء يُعدّون فى مرتبة التلاميذ للجارم ، وأن يشيح أصحاب الأقلام عن الإشادة بأدب شاعر تولىّ الزعامة الأدبية بعد شوقى ، وجمع الأمة العرّبية على وحدة هتف بها الشعر قبل أن يسعى لها ذوو السياسة ، وقد أشرتُ إلى ذلك فى هذه الصفحات لأحفظ للرجل الكبير مكانه الرائد بين النابهين ، وفى هذا تكريم للمبادىء التى هتف بها ، قبل أن يكون تكريماً لذاته ، وإحياء لِـمُثُلٍ يجب أن تبقى بقاء الحياة ، لتهدى إلى سواء السبيل . .

د . محمد رجب البيومى

- ولد فى رشيد سنة ١٨٨١ م .
- تعلم بالأزهر . . والتحق بدار العلوم سنة ١٩٠٤ م وتخرج فيها سنة ١٩٠٨ م .
- سافر مبعوثاً إلى إنجلترا ودرس الإنجليزية وعلم النفس والمنطق والأدب الإنجليزى وعاد سنة ١٩١٢ م .
- عين مدرساً سنة واحدة بمدرسة التجارة المتوسطة ، ثم نقل مدرساً بدار العلوم حتى سنة ١٩١٧ م .
- نقل مفتشاً بوزارة المعارف سنة ١٩١٧ م ، ثم رقى كبيراً لمفتشى اللغة العربية ، وبقى بها حتى سنة ١٩٤٠ م .
- عين وكيلاً لدار العلوم ثم عميداً لها حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٢م .
- عين عضواً بالمجمع اللغوى سنة ١٩٣٣ م، وبقى به حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ١٩٤٩ م .
- نال أوسمة كثيرة ، منحته مصر وسام النيل سنة ١٩١٩ ورتبة البكوية سنة ١٩٣٥ م ، وأنعم عليه العراق بوسام الرافدين سنة ١٩٣٦م ، ولبنان بوسام الأرز ١٩٤٧ ، ثم أنعم السيد رئيس الجمهورية على اسمه بوسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى نوفمبر سنة ١٩٩١ م .

● صدرت له مؤلفات منها :

١ ـ ديوان الجارم فى مجلدين كبيرين ، وسبع قصص تاريخية ، وعدة كتب فى تاريخ الأدب والنصوص والنحو والبلاغة وعلم النفس بالاشتراك مع غيره .

ـ حقق بعض كتب التراث ، كالفخرى ، والبخلاء ، والمكافأة بالاشتراك مع غيره .

ـ زار عواصم الدول العربية ، وألقى بها قصائد نالت شهرة بعيدة .

ـ صدرت عنه مؤلفات كثيرة ورسائل جامعية جمعها ولده الدكتور أحمد على الجارم فى كتاب «الجارم فى ضمير التاريخ» بتحقيق ولده الدكتور أحمد على الجارم أيضاً .

■ ١ ■

كان القاضى الفقيه العلاّمة الشيخ محمد بن صالح بن عبد الفتاح بن إبراهيم بن محمد الجارم لا يفرغُ مِن طعام الغداء حتى ينام بعض الوقت ، فإذا أذَّن العصرِ نهض إلى الصلاة ثم دخل حجرة مكتبته فظل بها يقرأ ويكتب ، فإذا أذن المغرب نهض لصلاته ، وواصل القراءة والكتابة حتى العشاء، ثم يترك مكتبته إلى مجلس أهله ، فيحادث زوجه وأولاده وبناته حتى تنقضى السهرة فينام .

قال ولده الصغير «على» لأخيه «النعمان» : ماذا يصنع والدنا كُلَّ يوم فى حجرة المكتبة ، إنه لا ينقطع عنها يومًا واحدًا ؟

فقال النعمان : ولماذا لا تسأله يا علّى ؟ فقال علّى : أنا أتهَيبُ أن أقف منه موقف المتسائل ، فابتسم النعمان وقال : سأسأله أنا ؟

وحين انعقد مجلس السمر بعد العشاء ، قال النعمان لوالده : إن علياً يتعجب لقراءتك الكثيرة ، وعكوفك فى مكتبك ، وليس عليك امتحان آخر العام .

فابتسم الشيخ ، وربت بيده على رأس علّى وقال :

أرجو أن تكبر ويكبر أخوك وتخلصا إلى ما أعمل ، فيتواصل حبل العلم فى أسرتنا النافعة .

قال علّى : وماذا تعمل فى مكتبك يا أبى؟ وتحرص على أن نجاريك فيه !

فنظر الوالد نظرة حانية إلى ولده التلميذ الصغير و إلى أخيه المتطلع لجوابه مثله وقال :

يا ولدىَّ ، لقد قرأتُ كتاباً فى فقه الحنفيّة لبدر الدين بن الغرس ، وهو موجز كل الإيجاز ، ولن يستفيد منه غير عالم حصيف لوعورة مسلكه ، فهدانى الله إلى أن أكتب له شرحاً ، وسمّيته «المجانى الزهرية فى شرح الفواكه البدرية » ، وهو اسم كتاب بدر الدين [١] .

فتطّلع الابن الصغير ضاحكًا لأبيه وهو يقول : مجانى زهرية ، وفواكه بدرية ثم يكون الكتاب فى فقه أبى حنيفة النعمان ؟!

فابتسم الأب ، وقال يا على ، أرى فيكَ بذرة أديب شاعر فهل تكون ؟

فنهض النعمان يسأل : وَماذا ترى فى يا أبى ؟ فقال الوالد : إنى سمَّيْتُكَ «نعمان» باسم الإمام الأعظم أبى حنيفة ، وأرجُو أن تكون من علماء المذهب! قال النعمان أسأل الله أن يأخذ بيدى يا أبى [٢] .

فنظر«علّى » إلى أخيه وقال : لقد تحدّد مستقبلنا ، أنا شاعر ، وأنت عالم، وسيأتى الغيب بما يريد.

وانتهز الوالد حوار الولديْن ، فقالَ لزوجته : اذهبى يا سيدة البيت لإحضار الشَّاى ، لأنى سأقصّ عَلَى علّىٍ ونعمان حديثاً .

ثم التفت إلى ولديه قائلاً :

---

(١) الأعلام للزركلى جـ ٥ ص ١٦٥ .

(٢) تحقق ظن الوالد فى نعمان فصار من كبار القضاة الشرعيين فى مصر ، وأسهم فى تأليف بعض الكتب الدينية والتاريخية ـ رحمه الله . .

اعلما يا ولدىَّ أن العلمَ فى أسرة الجارم لم ينقطـعْ منذ أجيـال ، لأن رشيدًا ـ بلدتكم هذه ـ قد حملت أمانة العلم ، خَرجَ منها جماعة من المحدِّثين [1]، منهم عبد الوارث المرادى ، ويحي بن جابر ، وسعيد بن سابق ، وأبوإسماعيل الترمذى ، وفى الفقه يُنسب إليها على بن إبراهيم الخياط ، وعلى بن شمس الدين بن زهران ، وكلاهما من أعلام الشافعية ، ولا أتحدث عن أجدادكم الجارميّين فهم مشهورون .

قال على : وخرج منها والدي صاحب شرح الفواكه : فقال الوالد : رشيد كثيرةُ المساجد كما تريان ، وليست المساجد للصلاة وحدها ، فإن حلقات العلم بها صورةٌ من حلقات الأزهر ، ومسجد المحلاّوى له أساتذته وتلاميذه ، يحصون فى السجّلات ، وتوزع عليهم الرواتب ، وأنت يا نعمان تستمعُ إلى شيوخه ، فتحدثْ عنه إلى أخيك !

قـال علـى : ولمـاذا بعثت بى إلى المدرسـة الابتدائية ولم أكنْ مثل أخى يا أبى؟

فقال الشيخ : الله يلهمنى فأسير وفق هداه ، وما تدْرى نفس ماذا تكسب غداً ثم قام الوالد إلى مضجعه ، فانصرف الأخوان .

▪ ٢ ▪

مضت الأيام ، وعلىٌّ يذهب إلى المدرسة الابتدائية ، حريصاً على أن يكون من التلاميذ المرموقين ، وانتظمت الدراسة إلى آخر العام ، وكان من المتَّبع لدى نظارة المعارف أن تُرسِل مسئولاً كبيراً لكل مدرسة تمتحن التلاميذ شفويًّا فى مشهد مجموع له الناس ، حيثُ يحضر أعيان المدينة من الحكام والرؤساء ، وجاءت الأنباء أنّ الشيخ حمزة فتح الله المفتش الأول بنظارة

---

(١) معجم البلدان جـ٣ ص ٤٥ .

المعارف سيقوم بالإشراف على الامتحان وهو صديق الوالد وزميله فى بعض أيام الطلب ، فاستعدّ منزلُ الشيخ لاستقبال الضيف العلاّمة ، وسَمر الصديقان سمرًا علميًا ، وسأل الزائرُ عن ابنَيِ الشيخ ، فعرَف أن عليًّا سيكون من الممتحنين فى الغد ، فتأكد من هيئته ، وبدا الصباح، فانتظم الحفل ، وتوافد الناس ، وجلس الشيخ يسأل ، فيُجابُ ، حتى جاء دوْر على ، فأكثر الشيخ من سؤاله ، وكانت الإجابة سديدةً موفقة ، وكأنه أراد أن يعرف سلامة خطّه ، فأمره أن يكتب على السبورة هذين البيتين[1] :

رأى وفدُ المعارف فى رشيد رشاداً زانَه رأىٌ سديد

فقالَ مؤيّدًا ما شاع عنها رشيدٌ ما بها إلاَّ رشيد

فكتَب علىٌّ البيتيْن بخط باهر ، وقامَ الشيخ فألْقى خطبةً امتدح بها المدرسة ، وأشاد بالطفل الناشىء على بن الشيخ القاضى .

وحين خرج بعد انتهاء الحفل ، توافد المجتمعون يقبّلون جميعاً يد الشيخ فى إجلال ، والتلميذُ ينظر مبهورًا لما يرى ، وكان والده يسيرُ إلى جوار الشيخ جَنْبًا إلى جنب ، فلما همّ الركب بالرحيل، وانقضتْ مظاهر التوديع ، رَجع الوالد إلى منزله بعَد أنْ سبقه الابن ، وكان فى لهفة لسماع رأى أبيه فى إجابته، فقابله أبوه مُـحتضنًا، وقال : لقد فَرح بكَ الشيخ حمزة ! فقال الابن : وما منزلة الشيخ حمزة ؟ فردّ الوالد : هو يا بنىّ أكبر عالم فى نظارة المعارف ، هو المفتش الأوّل للّغة العربية بالمدارس ، فعجّل الولد يقول : وهلْ إذا تعلّمتُ أكُون مثله المفتشّ الأول للّغة العربية بالمدارس ؟ فابتسم الوالد ، وقال : إذا اجتهدت يا علىُّ فقد تكون. وكأن السماء كانت تسمع ، إذ جلس التلميذ الصغير فيما بعد مجلس الشيخ الكبير .

---

(١) جريدة الأخبار / ١٠/ ٢/ ١٩٨٤ .

■ ٣ ■

لم تُعمر مدرسة رشيد طويلاً ـ كما كان ينتظر ـ فقد رأتْ نظارةُ المعارف أن تُلغِى بعض المدارس فى الدولة توفيراً للنفقات فى الظاهر ، وبتْراً للنبوغ فيما يريد المستشار الإنجليزى ، وشاء الوالد أن يضم ولدهُ إلى مسجد المحلاّوى كيلا يفوته قطارُ الدراسة ، فانتقل إلى حلقات المسجد ، يحفظُ آى الكتاب فى حَلْقَةٍ ، ويقرأ النحو فى حَلْقةٍ ، ويدرس الفقه كذلك فى حَلْقة مماثلة ووالدُه من فوقه يُسدّد خطاه ، ويسألُه عما فهم ، وما استغلق على فهمه، وقد حَفّظَهُ القرآنَ ببعض القراءات ، وحين سأله التلميذ عنْ ذلك ، قال له ستفهمُ فيما بعد .

والجارمُ الكبير يتحدث عن ذلك فيقولُ إن بذرةَ شغَفِه باللّغة العربية هى التفاته إلى القراءات المختلفة ، حيث دفعتْه إلى مراجعاتٍ كثيرة صَارَ بها لغَويًا ضليعًا ، كما اهتم والده بإتقانه (علم التجويد) وهو فى صميمه علمُ الإلقاء الصوتى ، إذ يحرصُ صاحبُ هذا العلم على النّطق الصحيح إظهاراً وإدغاماً وقَلْبًا وغُنّة وإخفاءً ، والذين يعدّون الجارم مِن أبرعِ مَن يُلقون الشعر فى المحافل جودةَ مَخَارج ، وسلامَة نطق ، وبلاغَة ترتيل ، عليهم أن يَعرفوا أنَّه رَضع ذلك فى مَهده الأول حَين دَرسَ علَم التجويد ، وظَل اهتمامه بهذا العلم مُلازماً إيّاه طيلة حياته ،فقد كانَ يسمعُ آيات الكتابِ من قارئى الإذاعة ، فإذا وجدَ انحرافاً فى التلاوة ، دَعَا القارىء ، وهدَاه بتوجيهه، فإذا استجابَ سكت عنه ، وإذا أعرض شكاهُ لذوى الأمر ، وقد تنقلت الأيام بوالده فى مناصب القضاء فكانَ ولده يتبعه فى كل إقليم يحل به ، حتى صار الشيخ قاضياً للجيزة ، وكان الولد قد بلغ أشدّه التعليمى فألحقه والده بالأزهر الشريف حيث حفظ القرآن ، ودرس شذوراً من مسائل الفقه

والنحو واللغة على هُيامٍ بالشعر ، جَعله يقرأُ ما يُنشر بالجرائد من قصائِد البارودى وشوقى وحفنى وصبرى ومَن سبقوه زَمنيًا فى حلْبة البيان ، ثم وقع فى يده كتاب (مختارات البارودى) بأجزائه الأربعة ، فأكبّ عليه استظهاراً ، وهو فى السنة الأولى من سنوات الأزهر ، وعجيب لطالب حَدث تُرهقه علومُ الأزهر أنْ يتفرغ لهذه الأجزاء الأربعة حفظاً وتسميعاً ومطارحةً وكأنَّ الشعر علمٌ سَيُمتَحن فيه ويأخُذ عليه دَرجات النجاح ! ولعله اتّصل بحلقة الأستاذ سيد المرصفى حين كان يشرحُ كتاب الكامل للمبّرد كما اتصل بها طه حسين والزيات والبشرى ، ومصطفى عبد الرازق ، أقولُ ذلك تخميناً لا تحقيقاً إذ لا تُعقَل أن يَهتم طالبٌ بمختارات البارودى الشعرية ، ثم يتقاعس عن دَرس الأدب وهو منه قريب .

وكانَ الإمام محمد عبده حينَ التحق الجارمُ بالأزهر يجذبُ إلى دُروسه شبابَ الطلاب ، ويرون فيه نمطاً جديداً فى طلاقة البحث ، وحرية القول، وانفساح الرأى ، ولَهُ كلّ أسبوعٍ دَرسانِ فى التفسير والبلاغة ، لا تقتصر رُوَّادُهُما على الطلاب ، بل يفدُ إلى الّرواق العباسى مِن رجال الفكر فى القاهرة مَن يَرْونَ الانتفاع بما يُقَدَّمُ للطلاب . وقد شغفَ الجارم بدروس أستاذه . وبخاصة فيما يقولُه عن البلاغة . فهو يشرحُ كتابَىْ عبد القاهر دلائلِ الإعجاز وأسرار البلاغة على نحوٍ لم يُعهْد لَدى الدارسين من قَبْل، والبلاغُة فى عُرف الطالب الناشىء بابُ الشعر والأدب . هذا إلى فَصَاحَة منطق الإمام وسهولة تناوله. وقد فاضت الجرائدُ والمجلات بآثاره ، لذلك هام الجارمُ بأستاذه وأنشد قصيدةً من أولياته فى مديحه ، لازالَ طِيلة حياته حريصاً على تسجيلها . إذْ أنها تمثّل خطوةً أولى فى حياته الأدبيّة ، وقارئُى القصيدة يلمس شغفَ الجارم الصغيربالنّهج العربى القديم فى قصائد العصرِ الأوّل إذ تعمد أن يُحاكى المخضرمين فى اتجاههم الأسلوبى ، والفرق

واضحٌ بين مدائح حافظ إبراهيم للإمام ومدحة الجارم الناشىء ، فحافظ تجاوزَ مرحلة التقليد حين قال فى الشيخ مثلاً مهنئاً إياه بمنصب الإفتاء :

بـلغتُـك لم أنْـسـب ولم أتغـزل ... ولمّا أقفْ بين الهــوى والتذلل[1]

فلم يبق فى قلبى مديحك موضعًا ... تجـولُ بـه ذكـرى حبيب ومنـزلِ

رأيتُك والأبصـار حـولَك خُشـع ... فقلتُ أبو حَفْص بِبُرْدَيْكَ أم على

وخفضْتُ من حزنى على مجد أمة ... تداركَتها والخطب للخطب يعتلى

أما الجارمُ ، وقد قرأ مدحَة حافظٍ وما شابَهها من أمَدْاحِهِ فى الشيخ ، فكانَ له رأى خاص فيما تنتحيه ، إذْ يرى أن يلزم طريقة القُدماء ، فى الابتداء بوصف الرحلة فوق الإبل فيبدأ قصيدته بقوله[2] :

المجدُ فــوق مُتون الضُّمّر القــود ... تَطوى الفلا بينَى إيجافٍ وتَوْخيد

إذا رمتْ عرضَ صيهودٍ مناسمُها ... رمْت إليها الليـالى كُلَّ مقصـود

ونَميلُ إلىَ أنّه أراد بذلك أنْ يثبت للمدوح تضلّعه فى اللّغة ، ومُساواته لِفحولِ الأقدمين ، فاختارَ أن ينهج نهجهم فى قصيدة الشيخ ، لأنّه فى قصائـده التى قالهـا فى هـذه الفترة الأولى لَـم يَنحُ مَنحـى هـذه الجزالـة ، ولم يتخذ من مظاهرِ البادية ما يَرتسمُ فى صُورَهِ وأخيلته ، وهذَا أيضاً يؤكد ما أشَرنْا إليه من تأثره بدروس المرصفى فى الأدب ، لأنّ تلاميذه يحكُون عن شَغَفَه بشعر الجاهلية وصدر الإسلام ، وَعَدَّهُ المثالَ الأَدْنَى للشعر وقد نازَعه من تلاميذه مَن يُؤثر شعر المحدثين فى عصر بنى العباسى ، فَرمَاهُ بقصر النظر . . ونأخذُ من ذلك أنّ الجارم الناشىء أُولع بالشعر فى عهد اليفاعة الأولى قبل أن يلتحق بدار العلوم ، فهو فى فترته الأزهرية قد شَغل نفسه

(١) ديوان حافظ : جـ (١) ص (٤) .

(٢) الديوان ٣٨٠

بالشّعر ، فأُحصيت له عدة قصائد متعدّدة الاتجاه ، فحينَ انتشرَ وباء «الكوليرا» فى مصر وفتكَ بالأرواح شرقاً وغربًا ، ونالتْ (رشيد) نصيبها الفاجع من هذا البلاء ، قال فى هذه المأساة قصيدة جاء فيها[1] :

أىُّ هـذا الميكـروب مهـلاً قليـلاً   قد تجاوزَت فى سراك السبيلا

لَسْتَ كالواو أنت كالمنجِل الحصّا   دِ إنْ أحسنوا لـك التمثيـلا

حَارَ (بنشنج) فيك يا ابن شعوب   وَنَقْضـتَ المـجرَّب المعقـولا

ولا تعنينى هذه القصيدة ، قدر ما تعْنينى قصيدةٌ أخرى قالها مفتخرًا ، ولم يكن الفخر إذ ذاك من أغراض الشعر الذائعة فى هذه الفترة ، بل كانَ قَطَراتٍ تُرى متناثرة فى بحرٍ خضم ولكن الفتى الناشىء كان واسعَ الآمال ، ولعله رأى غيرهُ يسبقُه فى امتداد الصّيت ، وَوَدَّ أن يحُرز ما أحرز ، فَساءَهُ أن يتجاهَل مُعاشروه قدره ، وصاحَ فيهم[2] :

إذا كـان عيْبى فيهمو أننّى فـتى   صغـيرٌ ، وشعرى بالشيبـة مُـسَوُّد

فمهلاً أنا النجم الذى يُبصرونـه   صغيراً ويُخفِى قدره عنهم البعــد

سئمتُ حياتى بين قـومٍ فضائلى   لديهـم يغِطّيها التـدابرُ والحقــد

سَتَنْدبنى الفصحى إذا مت قبلها   وماتَ الذى فى الناس ليسَ له ندُّ

وأعجب للناشىء إذ يسأمُ حياتَه ، ولم يبلغ العشرين : هل كانَ يُريد أن يرتقى إلى السماء فجأة ؟ وطبيعةُ الأشياءُ لا تسمح بما يريد ؟ إنّه صوَّر أمله فى الزّعامة الأدبيّة التّى ينتظرها ، بدليل أنّ الفصحى ستبكيه إذا مات ! وهو الذى لاندّ له فى العالمين ! .

وقد اشتهر الجارمُ كما اشتهر حافظ بالنادرة العَذْبَة يَقُولانها فى مجالس

(١) الديوان ٤٩٦ .

(٢) الديوان ٦٨ .

السمر ، ولكنَّ أثرها ضئيل فيما ينظمان من الشعر ، وقد كان المنتظرُ أن يمتلىء ديوانهما بما تفيضُ به رُوحَاهُمَا من حلاوَة وإبداع ، عَلَى أنّ روح الفكاهة هذه ، قد ظهرتْ فى بعض ما قال الجارم فى فترته الأزهرية ، إذ أنشدَ الصبىّ اليافع بيْتَيْن لا يقولهما إلا شاعرُ فكِهٌ متمرس ، فقد زار قومًا من صحابته فلم يَجِدْ من حفاوة اللّقاء ما كان يتوقع ، وكان الوقت وقت الصيام، ولرمضان استعداده الحافل عند الغروب ، والشاعر جائع يريد أن يَشبَع ، ومَا أمامَه لا يُـحقّق رغبته ، فلم يبق إلاّ أنْ يعبر عن مشاعره بقوله[1]:

أتى رمضــانٌ غير أن ســراتنا   يُريدونـه صـوماً تضيـق بـه النفـس

يَصومون صومَ المسلمين نهارَهم   وصومَ النّصارى حينما تغرب الشمس

ولو فطن الشاعر إلى نِكاته الحلوة فى مجلسه وحاوَل نْظمها فى سياق كهذا السياق ، لَرُوى له من الشعر الفكاهى مَا يتردد ويذيع ، ومن المتوقع أن يكونَ الشاعر المبتدىء حائراً فيما يأخذ ويدع من أغراض القصيد ، ولا يَجوز أن نُحاسبه على قُصورٍ لحقه فِي سن اليفاعة الأولى ، وحسبُه أنّه اقتحم المْوجَ ليتسابق مع السّابحين ، فقدْ أُعجب الجارم الصّغير بقصيدةٍ مشتهرة للشاعر الكبير إسماعيل صبرى ، نالتْ حظّها من الذيوع والتقدير حين نُشرتْ فى المؤيد ، تحت عنوان (لواءُ الحُسن) ومطلعها :

يـا لـواءَ الحُسن أحزاب الهــوى   أيقظوا الفتنة فى ظـل اللواء[2]

فقام بتشطيرها على نحوٍ لم يَبلُغ درجة الجودة ، وتشطيرُ الشّعر آفةٌ رَكِبَتْ عقول الناظمين حِيناً من الدهر ، ثم رأوا قلة جدْواها فانصرفُوا عنها غير

(١) الديوان ١٧٩ .

(٢) الديوان ، ص ٢٢٩ .

آسفين ، وكانَ على الناقِد أن يُقدّرَ طموح الناشيء الصغير فلا يزنِ تشطيره بميزان الفُحول من صاغةِ الكلام ، وهذا ما وَقع فيه الأستاذ أحمد الشايب ، حين خصَّ القصيدة بنقدٍ صادق لا مرية فى صدقه ، ولكنه غفلَ عن ظرفِ الزمان والمكان .

إنّ ما رُوِىَ من شعر الجارم الأزهرىّ فى هذه الفترة كثيرٌ بالنسبة لطالبٍ وُوجِهَ بدروسٍ متعدّدة فى شتّى العلوم لابدَّ من تحصيلها ، وهو بَعدُ حريص على السبّق الظافر إذ لا يكتفى بالقدْر المهيّىء للنجاح ، بلْ لابدَّ من الامتياز، فقد نَظَم شعرًا فى مدينة الفيوم ، وفى وصف مجالس السمر التى كان يصبو إليها باعتبارها مسارحَ أدب وشعر وثقافة ، كما لْم يكتم عواطفه حين رأىَ سراة القوم يركبوَن عرباتهم الفخمة تَسوقها الجيادُ المطهمة ، ويتهادون فيها بين القاهرة والجزيرة ، وفيهمْ مَن لا يفكُّ الخطّ عن أمّيَّة متأصّلة فيه ، وهو الأديبُ الطامح ينتعُل الحصى لاغباً متعباً ، ومن حقه لدِى نفسه أن يُفصح عن شعوره الناقم فيقول :

أيـركبُـها هـذا فتنتهـبُ الـثرى ... وتنهبُ رجلىَّ الحصى والجنادلُ (١)

رضيتُ رضاءَ اليأس و اليأسُ راحة ... وأتعبُ خلـقِ الله فى النّاس آمـِلُ

على أنّ الشاعر الناشيء كان سعيدًا بينهُ وبين نفسه حين نشرت المؤيدُ قصيدتَه فى الأستاذ الإمام ، وحينَ بلغَتْ مسامعَ الأستاذ فنوَّه بها ، وحظى الشاعر بعطِفه وتقديره ، وتنويُه الإمام بالجارم ذُو دلالة ، إذ أنّنا نعرف أن مصطفى الرافعى قد شكا لحافظ إبراهيـم أنّ مدائحه للإمام لا تجدُ ما يتوقع من التقريظ الحافل ، فطمأنهُ حافظ ذاكراً أنه لايجدُ ما يودّهُ أيْضاً ! فهل رأى الإمام فى الجارم الصغير نَبْتَةً تُحاول أن تترعرعَ فجادَ لها بالماء !؟ هذا ما أرتئيه . .

---

(١) الديوان ، ص ٤٩٨ .

حين كان الجارم يَتلقّى الدروس فى الأزهر قرأ إعلاناً فى الصحف عن مسابقة بين الطلاب الذين أمْضوا سبعَ سنوات فأكثر بالأزهر للالتحاق بمدرسة دار العلوم ، على أنْ تجرى المسابقة فى عُلوم اللّغة والأدب والرياضة مَعَ حفظ القرآن ، ولم يشأ الشاعر أنْ يستشير أباه ، كيلا يأتى ردُّه برفْض الخروج من الأزهر ، فتقّدم فى سنة ١٩٠٣ للمسابقة واثقاً من قدرته العقلية بعد أنَ انتشر لهُ صيتٌ بين الطلاب عَن تفّوقه فى الأدب والشعر ، وبَعد أنْ رَحبَّت المؤيد ببعض قصائده ، وكانت نتيجةُ المسابقة مفاجأةً للطالب نفسه، إذ كَان أوّلَ الناجحين ، وقد شعرَ بعزة نفسه حَين استقبلُه ناظرُ الدّار بالترحيب لأنّه الأول ، وأصَّر فى نْفسه على ألاّ يتنازَل عن الأوّلية فيما يلى مِنْ سنوات الدراسة ، وهو إصرارٌ كلفه المزيد من الاحْتفاء بالدرَّوس ، ومحاولة فهمها عَلَى تنوّع مراميها ، إذ كَانَ جدوُل الدراسة بدار العلوم حينئذٍ يشملُ علوم اللغة العربية وهى المطالعة [1] والإملاء والصّرف والنحو والعروض والقافية والمعانى والبيان والبديع . وتاريخ أدب اللّغة والإنشاء ويشملُ العلومَ الشرعية وهى التوحيد

---

١) تقويم دار العلوم جـ(١) ٤٣ .

والتفسير والحديثُ والأصولُ والفقه والمنطق ، كما يشملُ فَنَّي التربية العلمى والعملى والعلوم الرياضية من حسابٍ وجبر وهندسة والعلوم الطبيعية من التاريخ الطبيعى والكمياء والطّبيعة وقانون الصحة وما يسمى بالأشياء مع الجغرافية والتاريخ والرسم ، وهو جدولٌ مُتخَمٌ حقاً يقومُ بتدريسه صفوةٌ من الأساتذة الذين اختارهم أمين سامى باشا ناظر المدرسة عن فحصٍ وتجربة ! وكلّهُمْ من أعيان الفقه واللّغة والبيان والتربية فى مصر ! إنّ هذا الجدول الـمُتخم بشتى المواد كَان كافياً لانصراف الطالب عن الشّعر لا كعهدِهِ مِن قبل فى صحْن الأزهر ، ولكنْ كيف يستطيع أن يكبت عواطفه أمام دوا قاهرِة ، ومن أهمها صلتُه الوجدانية بحبيبة أظهرت ودًّا ثم ماطلت ، وأخلفتْ ، ودعتها دواعٍ إلى الاقتران العاجل بحبيبٍ آخر ، لقد ارتاعَ الجارم بدْءًا ، ثم بدا لهُ أن يسلوَ ، فقال يَصف أشجانه[1] :

طالَما سُقْتُ فؤادى نحوها ... فَنبتْ عنه مِطالاً ونبا

ودعوتُ الوجد للّهو بها ... فأبتْ دَلاًّ عليه وأبى

علقتْ غيرى وتَرجُو صِلتى ... عجباً ممّا تُرجّى عجبا

هل يحلّ الغمَد سَيفانِ معاً ... أو يضمّ الغيل إلاّ أغلبا

أَنا يَا زينبُ ماءٌ فإذا ... هجتنى صِرتُ لظىً مُلتهبا

أركبُ المركب صعبا خشنا ... إنْ دَعَتْنى همتى أنْ أركبا

ضارباً فى سُبل المجد ولو ... رصَفُوها بالعوالى والظبا

وسبُل المجد هذه ، هى الّتى جعلت الجارم يكبّ على دروسه مُصبحاً ممسياً ، كما جعلته الأولَ فى السّنوات الأربع التى قضاها بدار العلوم حيثُ لم

(١) الديوان ص ١٤٥ .

يعثر به الحظّ فيكونُ الثانى سنةً واحدة ، ولو حَصل ذلك لعده نكبةً تستدعى العزاء ! وقد فَاخَر بأيّامه فى دار العلوم حين كانَ رأساً بارزًا بين الطلاب فقال من قصيدة عامرة[1] :

ليتَ شعرى أيَرجعُ الأمسُ عهدًا غَصَبْتهُ الأيام أىّ اغتصاب ؟
عهد دار العلوم أنتِ يَد الدهر جمالُ الدّهور والأحقاب
إنْ ذكرناكَ هزّنا الشوق للشو ق ولَهوِ اللّدات والأتراب
أنتَ خِدن الشباب بينكُما فى الوهم قُربى وشيجةُ الأنساب
فكأنّى أرى الزمان وقد دَا رَ وعادَ الصّبا نضيرَ الإهاب
وأرىَ الجارم الفتى يقود الحشدَ فى جحفل من الطّلاب
واثباً لاهياً لعوباً ضحوكاً غيرَ ما واجل ولا هيّاب
واثقاً بالإله ليسَ يرى الصعب سوى أن تَهاب خَوْض الصعاب
فهو كالطائر الطليق فحيناً فى وهادٍ ومَرةً فى هضاب
عابثٌ بالغصون فى ظل روضٍ حَاكَ أفوافه مُلثّ الرباب
يحمل الكتب فى الصباح ولِلاَّ مال فى صَدره نئيجُ العباب
رأسُهُ رأس ماله وامتلاءُ الر أس خيرٌ من امتلاء الوطاب
كلّ يوم فى الامتحانات هين خطبُه غيرَ خطب يوم الحساب

وتاريخُ حياة الجارم فى عهد الطلب بدار العلوم يُلخِصها هذا البيت الصادق .

---

(١) الديوان ص ١١٨ .

يحملُ الكتـــبَ فى الصبــاح وللآمَال   فى صـــدره نئيـــجُ العبــاب

وما كَان الجارم مبالغاً فى حديثه عَن جِدّه الصارم ، وهَولِ الامتحان الذى اجتازَه بالسبق الظافر ، فإنّ أساتذته بالدار إذ ذاك قد اعْترفوا بَسبْقه وتأكدوا من روعة مستقبله لما لمسوه من جِدّهِ اليقظ ، وحيّويته الدافقة .

يقول الأستاذ أحمد العوامرى ـ أحد أساتذته الأماثل بالدّار ـ عن تلميذه على الجارم فى محفل تأبينه المجمعى (١) :

« كانَ عهدى بالفقيد العزيز عندمَا رَجعت من إنجلترا عام ١٩٠٧ ، وأُسند إلىّ تدريس التّربية وعلم النفس بدار العلوم ، وكان هو بالسنة النهائية بهذه المدرسة وكان بتلك السنة ستة عشر طالباً ـ على ما أذكر ، فجعلتُ أتصفح عنهم ،وأسبُر غورهم ، فلم ألبثْ حتى تَبَيّنتُ بينهم طالبيْن امتازا بسعة الأفق ، ورِقَة الحسّ ، وكمال الاستعداد الأدبى ، كانَ هذان الطالبان هما على الجارم وأحمد ضيف .

« كانَ على الجارم زعيم هذا الفصل علماً وذكاءً ولسانًا ، حاضَر البديهة ، قوىّ المنطق حتى لقد كُنت أعهد إليه أحياناً ، وأنا مطمئن النفس ـ فى أنْ يُلقى بعضَ دروسى ، وأنا حاضرٌ بعد أن أكُون دَفَعْتُها إليه من قبلُ مذكراتٍ مكتوبة على عجل ، فكانَ يُعدها إعداد الفَطِن ويُلقيها إلقاء مَن درّب بالتدريس ، ولم يكن الجارم بعدُ قَدْ مَارَسَ منه شيئًا ، اللهم إلا ما كانَ على سبيل التمرين بالمدرسة الابتدائية ، ويهرنى من الجارم أولَ ما بَهرنى ، شبابٌ رائع كأتمّ ما يكون الشباب بهاءً وروعة ، ثم حيوية فائقة يزينهُا مرح ، ودعابةٌ عذبة هذّبتها طبيعةٌ سليمة ، حتى لقد كانَ يبعثُ فى مجلسه وبين

(١) الجارم فى ضمير التاريخ ص ٩٣ .

إخوانه ، بل فى الدرس نفسه من فكاهاته ودُعاباته ، ما يجلُو عن النفس صَدأ الملل ، وغريّب أن يُلازمه هذا المرح طول عمره ، ما رأيته مُطرقا ولا واجماً ولا مُكتئباً ولا ساهماً ، إلاَّ حَين ثكلَ ابنه البكر » .

هذا قولٌ فصْلُ يُغنْى كل إسهاب فى سردِ حياةِ الطالب العلمية بدار العلوم ، وإذا كنتُ أتحدّث فى هذا الكتاب بنوعٍ خاص عن شاعرية الجارم، فإنّى أذكر أن انصراف الشاعر عَن روضة الشعر إذ ذاك لم يكنْ عامًّا ، وقد تحدثتُ من قبلٍ عن قصيدتيه فى زينب الهاجرة المهجورة ، وآنَ أنْ أتحدث عنْ قصيدتيْن أُخريينْ قالهما الجارم فى مناسبتينْ أدبيّتين ، وأقولُ مناسَبتيْن أدَبِيّتين لأسجل أن حُبَّ الأدب كان ذا سطوة قاهرةٍ على نفسه ، فهو لم يستطعْ أن يحجب رأيه عن قصّةٍ أدبيّة كَتَبَها أحد عَارفيه ، وطلبَ منه رأيَه فيما كتب ، وعَن جريدةٍ ناهضة برَزتْ لتأخَذَ بساعد الشباب وتُعين على نشرِ آثاره التى تكاد تضيع بين آثار الشيوخ ، فكَتَب عن القصة كلمةً شعرية ناقدةً ، ليست من باب المدْح الجُزاف ، ولكنها تصويرٌ وتحليل ، فالقاصُّ كما يقول الجارم عنه[1] :

نَراكَ فينا غُلاماً فى غَضارتــــة	وفى كتابــكَ شيـــخاً ينثرُ الحِكَما
بدا الخيالُ به فى زىّ ذى شبـح	فكــادَ يلمســُـه قُــرّاؤهُ وهمـــا
مالت له أُذنى من بَعد جفوتها	وكمْ حديثٍ تمّنتْ عنـده الصمما
أبدعت فيه فآلى كلّ ذى قلــم	مــن المجيدين ألاّ يحمِـل القـلما
تفلّ من موطـن الأسرار ثــورتَه	وتُوقظ الديـنَ والآداب والكرمــا

أمَّا قصيدةُ الجريدة فقد جَمعت بين الثناء والتوجيه ، وتلك يَقَظَةٌ مبكرة

---

(١) الديوان ص ٢٦٣ .

من الشاعر إذ عَرف أن الشعر أداةُ إصلاحٍ وإرشادٍ قبلَ أن يكون أداة ثناءٍ واحتفاء ، فعلى الجريدة أن تكشفَ عن الحقِّ المضاع مهما تراكمتْ فوقه الأطباق ، وأنْ ترفع صوتَها المدوّى لتمحو سكون الموتى القانعين ، وأن تحمىَ حمى الوطن المفدى ، فتردّ عنه صولة الاحتلال ، كلّ ذلك عناهُ الجارم حين قال[1] مخاطباً الجريدة :

محوتِ الليل ناصعة الجبين — فكنتِ بشائرَ الصبح المبين
وكانَ الحق مَذْءوماً سجينا — فحطّمتِ القيود عن السجين
أثيرى التّربَ عن حقّ مضاع — فقدْ طال المقام على الدفين
ومدّى الصوت صَخَّاباً جريئاً — فمعنى الموت من معنى السكون
وذُودِى عن حمى الوطن المفدّى — ورُدّى حرمة الحق المصونِ
فنحن الآن نَحيا فى زمانٍ — تنكرَ للضعيف المستكين

وفى سنة ١٩٠٨ ، تخرج الجارم فى دار العلوم، وكانَ الأولَ كعهده ، وقد جرت العادة حينئذ أن يُسافر أولُ الناجحين مبعوثاً إلى إنجلترا ، ليتخصصّ فى علومِ التربية والنفس ، وقد تهيأ الطالب لغدِه المشرق ، وقامَ حوارٌ بينه وبين أستاذه الكبير عبد العزيز جاويش حولَ هذه البعثة المرتقبة إذ كانَ من رأى الشيخ عبد العزيز أن ينضمّ الجارم إلى تحرير المؤيد ليرفَد الجريدة الوطنّية بثمرات يراعه ، فقال له الجارم فى أدب : إنكَ سافرت إلى انجلترا مبعوثاً من قبل ، فأستاذاً للغة العربية فى جامعة أكسفورد ، فدعْنِى أقْفُو خطوكَ وأعودُ محرراً معك ، واقتنعَ الشيخ بمنطق الشاب ، وظلّتْ عُرَى الود محكمة بينهما، حتَى انتقلَ الأستاذ جاويش إلى جوار ربه ، فرثاهُ الجارم رثاءً حارّاً

(١) الديوان ص ٢٧٦ .

تحدث فيه عن تشجيعه إياه ، وكريمِ عطفه وحنوّه ، وكان مما قال[1] :

لقد كنت تُعِلى فى الحياة قصائدى وتهتزّ عجبا إن سمعت نسيبِى

فهاكَ نداءً إن يجدْ منك سامعاً وهاكَ رثاءً إن يَفُزْ بمجيب

تمنيتُ لو أرسلتُ شعرى مع البكا بغير قوافٍ أو بغير ضروب

فإنى رأيت الشعر تنفر طيره إذا دُهِمت من فادحٍ بهبوب

تهابُ القوافى أن تمسَّ جلالةً لذى شمم ضافى الجلال مهيب

وهكذا ترك الشاعر دار العلوم ليشرئبّ إلى مطمحٍ آخر على ضفاف التاميز . .

(١) الديوان ص ٤٥١ .

سافر الشاب على الجارم سنة ١٩٠٨ م إلى إنجلترا فى بعثةٍ علمّية مع زميليْه الأستاذين محمود فهمى النقراشى ، ومحمد أمين لطفى ، فقَضى أربع سنوات سنةٍ منها فى «لندن» و«نوتنجهام» لدراسة اللغة الإنجليزية وثلاثاً فى كلية «اكسترا» لدراسة أصول التربية والأدب الإنجليزى ، وقد أدرك الطالب ثِقل مهمته ، فتفرغ لها تفرغاً جعله يحوزُ أرقى الدرجات التى تهيأ لِنوالها منذ بعث ، ولا يُنكر أحدٌ أن الجارم قد أجادَ اللّغة الإنجليزية إجادةً تامّة جعلتْ ترجماته منهَا إلى اللغة العربية مِنْ أرقى الترجمات التى تمتْ على أيدى المتخصصين، ولكنّه مع تمكنّه من دراسة الأدب الإنجليزى كان يَرى أن لِكل أدب طابعه الخاصّ ، وأنّ للشعر العربى أُصولاً ينتهى إليها ، لذلك جاء شعُره فى نَسْجِه الأسْلوبى عربيًّا خالصاً ، ونحن نعرفُ أن فريقاً من دارسى الأدب الإنجليزى فى مصر قد حاوَلُوا التّجديد فى قصائدهم على نحوٍ لا يراهُ الجارم ، والفنونُ أذواقٌ ومشاربُ ، فلسنَا نلزم أحداً بغير ما يراهُ وفق ميله الخاص ، وقد كان من نعمة العرّبية أن يسلك الجارم مسلك المحافظين فى وَجهِ دعواتٍ شاءتْ أن تتحلّل من كل قيدٍ فنّى ، وأن يكون بمقالاته وقصائده مثالاً للرسوخ النّاهض سدًّا فى وجه الشطط المسرف ، وقَدْ لاَقَى من ذلك عناءً كبيراً ، إذ

هاجمه من لم يبلغ مبلغه فى دراسة أدب الغرب ، وكانَ عليه أن يعلم أن الجارم يعرف أكثر مما يعرف ، ولكنّه شاء أن يبتعد بشعره عن منهج أجنبىّ يراه يهبط ولا يرتفع وهَو مـا عبرّ عنـه كثيراً فى شعـره ، ومـن أبلغ ما قـال فى ذلك[1]:

سكتَ العندليب فى وحشة الدو ... حِ و غَنّـت نواعـق الغربـان

فسمعْنا مـن النشـوز أفـانين ... يُـروّ عْـنَ صـادح الأفنـان

أسمعونَـا بِرغْمـنا فصبرنـا ... ثـم ثُرنـا غيظاً علـى الآذان

جَلبـوا للقَريـضِ ثوبـاً مـن الغر ... ب ولم يَجْلِبُوا سـوى الأكفـان

ثـم قـالوا مجـدِدُون فـأهـْلاً ... بصناديـدِ أخريـات الزمـان

لا تثوُروا على تُـراث امـرىء القَيْـس وصُونـوا ديباجـة الذبيـانى

واتركُـوا هـذه المعاولَ بـالله ... فـإنّى أخشـى على البنيـان

واحْفظُوا اللفـظَ والأسـاليبَ والذوقَ وهاتُوا ما شئتمو من معانى

مـا لسانُ القريـض مـن عربىٍّ ... كلسانِ القريض مِنْ طُمطـمانى

إنما الشـعر قطعَةٌ منـك ليسـتْ ... مـن دِمـاء اللّاتيـن واليونـان

كـلّ فَـنّ لـه مكـانٌ وأهـلٌ ... إنْ غَدا العـلم ما لَهُ مـن مكان

وجهـة الشـرق غيرُهـا وجهـةُ ... الغرب فأنَّى ، وكَيف يلتقيـان

أقول هذا ردّا علىَ من تهجم على الجارم فزَعَم أنه عاشَ فى إنجلترا ، ولم يُتْقنْ لغة الإنجليز ، ولم يعرف منازع آدابهم ، ولو كان الزاعم مُنصفًا لأقَر

(١) الديوان ص ٣٥٣ .

بأنّ الشاعر تَرجَمَ كتاب (قصّة الأندلس) ترجمةً أمينة شهدَ لها المتخصّصون بالإتقان والتفوق ، ثم راجعَ عَدة روايات إنجليزيّة طَبعتها الوزارة لعهدهِ ، فكانتْ مُراجعته للترجمة مصدرَ نفعٍ محقق للمترجم ، وأذكر أن الأستاذ سعد اللبان قد تحدّث عن ذكرياته معه فى بعض المواقف الأدبية فقال[1] :

« أذكر موقفاً لا أنسىَ فيه فَضْل الجارم ونِعمته التى أسداها إلى مصر فحفظَ لها زِعامتها الأدبية ، كانَ ذلك يومَ اجتمع أدباءُ العروبة من شتّى أقطارها لتابين أمير شعراء العرب المرحوم أحمد شوقى ، وكانَت حفلةً اجتمع بها من أدباء الشرق عددٌ لم يجتمع مثله لتأبين ولا لتكريم ، وكان ممّنْ دُعى إلى هذه الحفلة شاعر الهند العظيم طاغور ، وشاعرُ النهضة الإسلامية فى الهند المرحوم محمد إقبال ، وكانَ إلىَّ الإشرافُ على تنظِيم الاحتفال ، فتلقيت رَدَّ الدعوة من كلا الشاعرين العظيمين طاغُور وإقبال ، وكانَ ردُّهما بالإنجليزية فى برقيتين ضافِيتين ، فرغِبْتُ إلى بعضِ المترجمين أن يُترجمها إلى العربية ، لتُتليَا فى الاحتفال فأدى الأمانة علىَ وجهها ، ولكنّى أحسستُ ـ مع اعترافى بصحّة الترجمة ودقتها ـ أن روُح الشاعر لا تنبِضُ وراء الكلمات ، وأكبرتُ أنْ يترجَم شعر طاغور وإقبال إلى لغِة المعاجم الخرساء ، وهُما مَن هما بين شعراء الإنسانية وفَلاسفتها ، فعدلْتُ عن تلك الترجمة ، وعهدتُ إلى على الجارم أن يُعيدها ، وهل يحُس إحساسَ الشاعر إلاّ شاعر ؟ وقرأً على الجارم البرقيتّين ، ثم كتبهما بالعربية ، وأحسست وأَحَسَّ جمهور السامعين فى الحفل أنّ روح طاغور ، ووجدان إقبال وفلسفة الهند مصورةٌ فى كلمات على الجارم ، ولم يزد الجارم فيما ترجمه معنى ، ولم يُزيّن لفظاً ، ولم يضع كلمة فى الترجمة العربية لم يكن لها شبيهٌ فى الإنجليزية ولكنه مع ذلك جاء بشىء

(١) الجارم فى ضمير التاريخ ص ١١٢ .

جديد فى البرقيّتين فلو كتب طاغور وإقبال كلمتيهما فى تأبين شوقى بالعربية لما جاءتَا إلاّ كما ترجَمَهُما على الجارم ، شاعرٌ من تلك الأسرة رَضَعَ من تلك اللّبان ، فأحسنَ الترجَمة عن ذلك الوجدان » .

هذا بعضُ ما قاله الأستاذ اللبان خاصًّا بتمكّن الجارم من الإنجليزية ، أما بقية القصّة التى دلت على عظمة الجارم الشعرية فلها مكان آخر .

الجارمُ إذنْ قد ألّم بثقافته الإنجليزية إلماماً بصيرًا ـ ولكنّهُ لم يشأْ أن يعدلَ عن النهج العربى فى قصائده ، ولكل وجهةٍ هو موليها .

ولكن هل استمع الجارم إلى هُتاف الشعر العربى فى مغتربَه النائى ؟ إنَّ حاله فى أوربا كحاله فى دار العلوم ، إذْ تفرغَ بأكثرية جهده إلى هموم بعثته ، ولكنّ صوت الوحى جبارٌ قاهر ، إذ كان يدفعه إلى نظم ما يجدُ له تأثيراً قويًّا فى نفسه من المشاهد ، ومن ذلك أنه رأى الضبابَ متكاثفاً فى لندن ، بحيث لا يستطيع أحدٌ أن يسير فى أسداله إلاَّ عن خبرة سابقة . ثم شاهد رجلاً أعمى فى هذا الضباب الكثيف يقود بصيرا يسحبه من خلفه ليهديه سواء السبيل ، فهل يستطيع الجارم أن يسكت عن هذه المفارقة المفاجئة التى جعلت الأعمى يقود البصير ، إنه انطلق على سجيته يقول(1) :

أبصـرتُ أعمـى فى الظلام بلندنٍ يمشـى فـلا يشكو ولا يتـأوه

فأتـاه يسألـهُ الهداية مبصـرٌ حـيران يخبط فى الظلام ويعمـه

فـاقتـادَه الأعمـى فسارَ وراءه أنـى تـوجّه خطـوة يتوجـه

وهنا بدا القدرُ المعربُد ضاحكـاً ومَضى الضبابُ ولا يزال يقهقه

وتَلَبُّدُ الجو فى إنجلترا ، وانتشارُ الظلام بحيث لا تستطيعُ المصابيح

---

(1) الديوان ص ٧٧

الخافتة أنْ تُعين على السير فى غياهبه ، مما أحسنَ الجارم وصفَه فى رثاء صديقه الأستاذ محمد أمين لطفى ، إذ عَرض إلى ذكرياتِ البعثة العلمية التى أشرتُ إليها من قبل ، فرسَم مشهدًا لِطالبَين مُجدّيْن يغذّان السير فى غاشِى الضّباب ، وكلاهُما يستحث الآخر كى يسرع ، وقد حجب الشمسَ الضبابُ فى بلادٍ ماتت بها الشمس ، فظلّتْ عليها أعيُن السحب تدمع وهو تصوير «نادر» انفرد به الجارم حين قال(١) .

أتذكر إذ نمشى إلى الدرس بكرةً | بِنُوتِنْجهام تستحث فأسرِع
وقد حَجب الشمس الضبابُ كأنما | تلا الليل ليلٌ عاكر اللون أسفع
بلادٌ كأن الشمس ماتت بأفقها | فَظلتْ عليها أعين السحب تدمع
كأن المصابيح الخوافق حولنا | سيوفُ وغًى فى ظلمة النقع تلمع
كأنّ بياض الثلج ينشر فوقنا | صحيفتك البيضاء بل هى أنصع

والبيت الثالث من النوادر حقًا !

وفى العام الأول من بعثة الشاعر ، لَمس اشتدادَ البرد فى إنجلترا على غير ما يتُوقع ، وسمعَ اصطخاب الريح من كل جانب ، ورأى الزّمن لايسمح بالمسير إلى أى مكان ، فلاذَ بُغرفته مع بعض صحابته ، جالساً أمام الموقد وكأنه طوقُ النجاة ثم جاشَ خاطره عفو الساعة بأبيات قال فيها (٢) تحت عنوان (يوم عبوس) :

ويلاهُ من يوم الخميس فإنه يومٌ عبوسْ
فيه تحاربت الرياح فلا تقل حرب البسوسْ

---

(١) الديوان ص ٤٣٥ .

(٢) الديوان ص ٢٣٦ .

خافتْ غوائله الغزالةُ فالغمائم لها تُروس
يوم أحَطنا باللَّظى فيه ونكّسْنا الرءوس
فكأننا كنّا نؤيد فيه مُعتقد المجوس

وقلبُ الجارم أينْ هو فى إنجلترا ؟ هل استطاع أن يغمض عينْه عن التطّلع إلى مسارح الحسن فى أبهى مجاليه ؟ إنّ الجارم كظيمٌ متحرّز ، لا يُبْدى خوافيه المستكّنة إلاّ بعد مجاهدة عسيرة ، يصعُب معها الكتمان ، وقد ظلّ الجارم كاظماً كاتماً طيلة أيامه فى إنجلترا ، حتّى إذا انتهت الرحلة وعادَ إلى مصر ، تلفَّت للماضى تلفت الذّكرى فأنشدَ قصيدة عاطفية جعل عنوانها ذكرى الغرب بدأها بقوله (١) :

يا دار فاتنتى حُيّيت من دار سيّرتُ فيك وفى مَن فيك أشعارى
رحلتُ عنها وللأشجان ما تركتْ فى العين والقلب من ماءٍ ومن نار
كانت مجال صبابات لهوت بها ومُستراضَ لُبانات وأوطار
أرضٌ كأنّ إلٰه الأرض أوْدَعَها بدائع الحُسن من عون وأبكار
ألْقَوا خدودَ العَذَارَى فى حدائقها ولقّبوهَا بأثمار وأزهار
وجردّوا كل حسن من قلائده فصِرْنَ حصباء فى سلسالها الجارى
لو كنتُ أظفر فى الأخرى بجنّتها غَسلتُ بالدمع آثامى وأوزارى

وقد بقيتْ مقطوعات أخرى ، كشعره فى عمامته الّتى تركها ، ولَبِسَ القبعة مكانها ، ولكن ذلك كلّه ، لا يَمْنعنا أن نذكُر عن الشاعر المبعوث أنّه كان رجل جدٍّ وكدحٍ ، وكان كشأنِه ـ فى جميع أدوار حياته ـ يضعُ أمامَ عينه

(١) الديوان ص ٢١٧ .

هدفاً يسعى إلى تحقيقه ، وقد عاد بعد أربع سنوات ، يحمل ما يصبو إليه من الدرجات العلمية ، فاستُقْبل من ذوى الأمر استقبال المجد الناهض ، فأخَذَ يتهّيأ لمستقبلٍ منير . .

عاد الجارم إلى مصر ، ليقْضِى عاماً فى مدرسة التجارة ، ثم ينتقل إلى دار العلوم مدرساً للتربية وعلم النفس وقانون الصحة ! وليسَ من شأن هذا الكتاب أن يتحدث عَن الجارم مربيّاً وكاتباً ومُحَقِّقاً ومؤلّفاً ، وعضوًا بالمجمع ، وعميداً لدار العلوم بالنيابة ، لأنّ الكتاب يتحدّثُ عنه شاعراً فحسب ، ولو فَرَغَ هذا القلم للحديث عن ذلك كله لاَحْتَاج إلى مجالٍ رحيب ، لأنّ الجارمَ الموهوب قد تعدّدت أفانين نبوغه ، وتركَ أثَره الضخم فى كل مازاول من عمل ، لم يكن متفرغا للشعر كشوقى وحافظ ومحرم والكاشف وأكثر شعراء جيله ، ولكنه أستاذٌ مطالب بالتدريس والتحقيق والتفتيش والتأليف والإدارة ، ولم يمنْعه ذلك أن يكون شاعراً كبيراً من شعراء الصف الأول فى عصره ، لقد عادَ الجارم بعد بعثته الأوروبية ، وروحُه الشاعرة تتوثب بيْن أضلاعه ولكنّه يُدرك أنّ من سبقه من الشعراء الكبار يُشْرِقُون فى سماء العالم العربى ، وفيهمْ من ائتلقت شمسُه فكَسَفَتْ نجُوماً ذات بريق ، فعليْه أن يتئّد فيما ينظم ، فإذا اكتمل لهُ ما يريد أن يُعبر عنه نشَرهُ فى تواضع هادىء لا يعرفُ الضجيج ، وقد قُلتُ إنّه رجع من الغرب حاملاً بعض الشجون الرقيقة نحو فاتنة ساحرة قال عنها :

---

(١) الـديوان ص ٣٣٧ .

كـانَ لـى إلْف فـأبعـده ... قَدرٌ عـنى وأبعـدنـى

أنَـا مَـدَّ الدهـر أذكـره ... وهـو مَدَّ الدهـر يذكرنـى

مـن لَدُنْه الـودّ أخلصه ... والوفَا والطـهرُ مـنْ لدنـى

كـانت الأطيـار تَحْسُـده ... جنةَ المـأوى وتحسـدُ نـى

وظَنّنـا أن نعيـشَ بـه ... عيشةَ المُستعصم الأمـن

فرمت كـف الزمـان بـه ... فكـأنّ العُـش لم يكـن

إنَ ـزرْ يـا طيرُ دوحتـه ... بين زهـرٍ ناضـرٍ وجنـى

وشهـدتَ (التَمِسْ) مضطرباً ... واثـباً كالصّافـنِ الأرنِ

صفْ له يـا طـير مالقيـت ... مُهجتى فـى الحـبّ من غبن

صـف لـه رُوحـا معذبـة ... ضـاقَ عـن آمالها بدَنـى

لذلك حوّم شعره فى هذه الفترة غَزِلاً طروباً ، فكتَب قصائَد وجدانية لاقتْ قبول القُراء، بلْ ما كادت إحداها تُنشر فى جريدة الأهرام ، حتَّى حفظَها الرواة ، ثم أُتيح للآنسة أمّ كلثوم أن تقرأها فيما بعد ، فردَّدَتْها بصوتها الساحر ، وكانَ غناء أم كلثوم لها سبباً فى ذيوعها الطائر ، أمّا القصيدة فهى التى ابتدأها بقوله :

مـالى فُتنتُ بلحظـك الفتـاكِ ... وسلـوت كـل مليحـة إلاّ كِ [1]

يُسراكِ قد مَلَكَتْ زمـام صبابتى ... ومضلّتى وهـداى فى يمـناكِ

فإذا وصلت فكلّ شـىء باسـم ... وإذا هجـرتِ فكل شىء باكِ

---

(١) الديوان ص ٤٥ .

لـو لـم أخفْ حـرَ الهـوى ولهيبـه جعلـتُ بين جـوانحـى مثـواكِ

إنـى أغارُ مـن الكئـوس فجنبـى كـأسَ الـمُدامـة أن تقبّل فاكِ

خدَعْتك ما عذب السّلاف وإنما قـد ذُقـت لما ذُقتِ حُـلـو لماكِ

لكِ مـن شبابك أو دَلاَلِك نشـوةٌ سـحر الأنـام بفعلها عطفـاكِ

وكانَ رائعاً من الشاعر الـمُعَمم المتحرز عن كل شبهة فى خُلُقه وسلوكه أن يهتِف بهذا الغزل عند قوم يظنون شعر الحنين وقفاً على غير المتحرّزين ، فكتبَ أحدهُم ما يُنْبىء عن شماتةٍ خافية ، بل ما ينبىء عن حَسد مُوغل لشابٍ رُزق الموهبة الشاعرة ، والجارمُ الأديبُ لا يسكت عنْ مغمز ماكر ، فأعادَ الكَّرة فى قصيدةٍ تالية ألْقاها فى حفلة افتتاح نادى الرّياضة الأهلى بالجزيرة ، وفى جَمع حاشد من مئاتِ الشباب والشيوخ ، يتَحدَّث فيها عن طهارة الحب وشرفه ، وارتفاعه عن النقائص الآثمة ، وأثره فى الارتقاء النفسى بالمشاعر إلى سموات العزة والكرامة والحرية فهو سرٌّ من أسرار السماء يختص به ذو الوجدان العفيف والإحساس الشريف ، وقد نُشرت القصيدةُ أول ما نُشرت فى مجلة (سركيس) الصادرة فى يناير سنة ٩١٦ ، وفيها يقول[١]:

والحـبّ مـالم تكـتنفه شمائـل غـراءُ كـان معَّـرةً وأثامـا

والحب أحلامُ الشباب هنيئـة مـا أطيبَ الأيامَ والأحلامـا

والحـبُّ نـازعـةُ الكريـم تهزّه فيصـولُ سيفاً أو يسيل غماما

والحبّ من سرّ السماء فسَمـّه وحـياً إذا مـا شئت أو إلهـا ما

لـولاهُ مـا أضحى وليـد زبيبةٍ يـومَ التفاخـر سـيدًا مقدامـا

(١) الديوان ص ٣٠٤ .

يا جنّةً لـو كان ينفـعُ عندهـا   نُسـك لبثْنـا سُجَّـدًا وقيامـا

يا طلعـةَ الروض النضير تحـيةً   ومجاجة المسك الذكى سلاما

انتشر شعر الجارم فى هذه الحقبة ، فدُعى إلى الحفلات الكبرى زميلاً لكبار الشعراء ، فهو فى سنّ الشباب يُزامِل «إسماعيل صبرى وأحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، وحفنى ناصف» . وهمْ أكبر منه سناً وسابقةً فى مضمار القريض ، وإذا كانَ الجارم قد أجادَ الغزل فى هذه الحقبة فقد أجادَ الرثاء إجادةً ظافرة ، ففى تأبين إسماعيل صبرى وعاطف بركات وعبد العزيز جاويش وغيرهم كانتْ قصائدهُ لاتقلّ عن قصائد أساتذته الكبار ، وزاد عليهم جودة الإلقاء ، وبراعة التمثيل ، ولطف الإيحاء ، حتى اختاره أحمد شوقى ليُلقى كثيرًا من قصائده مستريحاً إلى تأثيره الصوتى ، وشدّة انتباه الجمهور لرناته المعبّرة ، وفى حفلة تأبين إسماعيل صبرى ألقى قصيدتيْن ، قصيدة له ، وقصيدةً لأمير الشعراء ، ولاحظ حافظ إبراهيم أنّ إلقاء الجارم يعدلُ إلقاءَه ، فحرصَ على أن يقول له مداعباً ، لماذا لم تأخذ قصائدنا جميعًا ما دُمت تُغَنّى لشوقى !! وحافظ لايدرى أنّ الجارم يتخذُ «شوقى» أستاذًا لَهُ ـ وأنّه قد نشأ فى بيت والده المعجب بآثار شوقى هائماً بأمير الشعراء ، وقد كتب مقالاً بمجلة الهلال قال فيه [1] :

«كان أبى إذا جلسَ بعد العشاء التفّ حوله أبناؤه ، فتنقّل بهم من أدب إلى تاريخ إلى بُحوث سهلة فى اللّغة إلى شعر جزل رصين ، وكانَ أخى الأكبر مولَعاً بشعر شوقى معجبًا به لا تكادُ تظهر له درّة حتى يلتقطها ، أو تنشرُ له قصيدة حتى يحفظها فى ضبط وإتقان ، وكنتُ فى غضاضِة صباى ، وقد أكونُ فى طفولتى أترسّم خُطَا هذا الأخ الكريم ، وأتخيّل فيه المثل الأعلى الذى

(١) جارميات : ص ٣١١ .

إليه أصبو ، وكم كنّا ننتظر المواسم والأعياد وما يجدّ من ظروف وأحداث لتطلعَ علينا المؤيدّ بفريدة من فرائد شوقى ، وأذكرُ أنى كنتُ أترقب البريد فى شوقٍ ولهف ، فلا أكادُ أظفر بالجريدة وألمح فيها قصيدة شوقى حتّى تأكلها عينى فى شوق ونهم ، ثم أعود إلى أخى وأناوله القصيدة فيسرع بقراءتها فى صوت رنان ، رائع الإيقاع ، ساحر الأداء ، يزيدُ جمالها جمالاً ، ويملأُ منها الفراغ الذى لم يستطع الشاعر ، ولم تستطع اللّغة أن تملأه » .

هذا هو شوقى ، وهذا كَلف على الجارم به ، وكان يعتبرهُ أستاذَه بين المعاصرين ، فمع أن الجارم قد نَخلَ دواوين الشعر العربى فى كافة عصوره نخلاً ، ووعاها دراسةً وتحليلاً ومقارنة ، فقد كان شوقى مثله الأول ، ولم يكتمْ ذلك عن قرائه ، بل سجلّه حين قال مخاطبًا «شوقى»(١) :

فكنتَ شريفَ قوافى البيـــان وكـــنتُ بفضِـلكَ مهيـارهـا

جـزيتُ بشعـرك شعرًا وهل تُـجازى الخمائـل أمطـارهَا

وقد كان الشريف الرضى أستاذاً لمهيار الديلمى ، كذلك صار شوقى أستاذَ الجارم باختياره ، وشعرُه هو المطرُ الذى يهمى على روضته فيُنعش زهورها وأغصانها ! والبيتانِ من قصيدة عامرة قالها الجارم حين توافد شعراءُ الأقطار العربية يبايعون شوقيًا بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ ، فأنشدُوا غرَّ القصائد فى تكريمه ، ولم يتخلَّف الجارم عن رِفاقه فأنشأ قصيدة يصفُ شعر شوقى كما يراه الجارم فى مرآته(٢) :

فمـن حكمةٍ علمتْها السنون حـوارَ النفـوس وأسـرارها

لهـا صفحةُ الكـون منشـــورة يُترجـم بالشعـــر أسطارهـا

(١ ، ٢) الديوان ص ٩١ .

يغنّى كما صدحت أيكة ... وقد نبّه الصبح أطيارها
ويبكى فيُبكى رسوم الديار ... حناناً عليه وآثارها
وينسب حتى يلين الهوى ... وتَقْضى الصبابة أوطارها
وتنسَى الكواعبُ آى الحجاب ... وتَبكى العجائز أعمارها
يريك إذا خطّ فى طرسه ... حياة القرون وأدوارها
فيرسمُ أندُلساً باليراع ... فتلمسُ كفّك أسوارها
وإن وصفَ الحرب خلت الحراب ... تسدُّ من الأرض أقطارها
فتمسكُ جنبك ذعرًا تخاف ... قَناها وترهب بتّارها

وظلّ الجارم يرعى مقام شوقى ، ويعرف أنّه لسانُ مصر المعبر ، وقلبُها النابض ، وأنه أحد من أوْلوها زعامة الأدب فى العالم العربى إنْ لم يكن أوّل من أولوها هذه الزعامة ، وما حدَّثَ نفسه أن يكونَ لسان الأمة العربية قبلَ أن يرحل شوقى ، إلاّ أنّ موقفاً أدبيًا كبيراً حتّم عليه أن يحمل الراية من بعده، هذا الموقفُ أشار إليه الأستاذ سعد اللبان [١] فى كلمته التى أشرتُ إليها من قبل، كما أوضَحه الأستاذ العالم الأديب محمد هاشم عطية حين حدثنا فى كلية اللّغة العربية ، فقال ما أنقل ما فحواه :

حين ماتَ أحمد شوقى أُقيمت لتأبينه حفلة كُبْرى بدار الأوبرا الملكية ، حَضَرها صفوةُ شعراء العربية وكتّابها . وقد افتتحت الحفلة بكلمة رسمّية لمتحدث مصرّى لم تكن موضع الاحتفاء ، وقام الشاعر اللّبنانى الكبير بشارة الخورى فألقى قصيدةً رنانة كان لها دوى هائل وهى التى بدأها بقوله [٢] :

---

(١) الجارم فى ضمير التاريخ ص ١١٢ .

(٢) أحسن ما كتبت ص ١٩٠ .

قف فى رُبا الخلْد واهتف باسم شاعرِهِ   فسدرةُ المنتهى أدنى منابـرِهِ

وقد لاقت تصفيقاً حارًا ، لاسيّما حين أبدع الشاعر حديثه عنْ مصر فقال :

يا مصرُ ما انَفَتَحتْ عينٌ على حسن   إلا وأطلعتِ ألْفاً من نظائره

ولا تَفتَّقتِ الأفكار عن أدب   إلاّ وأنبتّ روضاً من بواكره

شوقى أتذكرُ إذ (عاليه) موعدنا   نِمْنا وما نام دَهرٌ عن مقادره

سَألْتَنِيهِ رثاءَ خُذْهُ من كبدى   لا يؤخذ الشىء إلا من مصادره

وجرى على هذا النحو مع سمو التصوير وجودة التعبير ،وارتفاع فى الخيال ، ثم قام الدكتور منصور فهمى فألقى كلمةً أكاديميّة عن الفلسفة فى شعر شوقى لم يطرَب لها العامة ، إذ كانتْ من شأن الخاصّة ، وتلاه الأستاذ أنطون الجميل فأتى بالرائع المستطاب فى حديثه عن شقى تحليلاً ووصفاً واستشهادًا ، وغمر الحفل شعورٌ بالحسرة على مكانِة مصر ، إذ تفوّق بشارة والجميّل على صَاحِبَيْهما تفوقًا طَامَن من كبريائنا الأدبيّة ، ثم قامَ الجارم بعد ذلك فألقَى أروعَ قصيدةٍ قيلت فى شوقى ومطلعها[1] :

هل نعيتم للبحترى بيانه   أو بكيتم لمعبد ألحانه

فارتفع بالسامعين إلى أرفع جو يأملونه عذوبة تعبير وروعة تصوير وقوة عاطفة وجمال إلقاء وبلغ حد الإبداع حين قال [2] :

كم يتيمٍ من المعانى غريب   مَسحت كفُه عليه فصانَهْ

ونفورٍ أزرى بصيّادِه الطّب   وأعيا قِسيّه وسنانه

(١ ، ٢) الديوان ص ٢٩٢ .

نظرةٌ تلتقى بـه ينهـبُ الــواد ... ى وأُخْرى تراه يطوى رعانــه

تَسبـق السهـمَ عينـه فــتراه ... يتـلـوى تلـوّى الخيزرانــه

ثــم يخفــى فــلا تــراه عيــون ... ثــم يبدو فـلا تشكّ عيانـه

أجهدَ الفــارس الملــحّ وأفْنــى ... نبْلهُ حوله ، وأضنى حصانـه

وهــو يعدُو لاَ الرأسُ مال من الأ ... يْــن ولا قَلبُه شكـا خفقانـه

مــدَّ شوقـــى إليه نظــرة سحــرٍ ... عَوّقت دُون شوطــه جريانــه

فأتــى مِشيــة المقيــد يَسعـــى ... بين هــولٍ وذلّـــة واستكانـــة

ومضى الجارم فى هذا التصوير الرائع ينتقل من خاطر إلى خاطر حتى قال :

عــالمٌ بالنفــوس ما غَاص مَيْلٌ ... فى خفايـا النفــوس إلاّ أبانــهْ

أودَع الدهــر مِسمعيْه عن الكون ... حــديثًا فلــم يُطــق كتمانـه

وهنا صاح الأستاذ عبد العزيز البشرى هاتفًا «الجارم ستر مَصر !! الجارم ستر مصر ! ورنّتْ كلمة البشرى فأحدثتْ تصفيقًا مدويًا ، وكأنها بيتٌ رائع للجارم! ومن يومها والجارمُ قد أخذ على نفسه عهدًا أن يكون بعد شوقى لسانَ العروبة الناطق وبلبلها الصداح . .

-١-

إذا عُرف شوقى بأنه أمير الشعراء ، وعُرف حافظ بأنه شاعر النيل، وعُرف خليل مطران بأنه شاعر القطرين ، فقد عُرف على الجارم بأنه شاعر العروبة ، وهؤلاء جميعًا قد أشَادوا بالعروبة فى قصائدهم ودعوا إلى مجدها الزاهر ، ولكنّ أحدًا منهم لم يبلغْ مبلغ الجارم فى تكرار الدعوة الملّحة إلى إحياء المجد العربى ـ وبعث اليقظة فى النفوس العربية فى شتّى أقطار الفصحى ، فلهُ أكثر من عشر قصائد رنّانة فى هذا المجال ، وقصائد الجارم مُطيلةٌ مسهبة يرتمى الخاطر فيها وراءَ الخاطر ، وكأن بحرًا زاخرًا يتدافع موجه، لجةً خلْف لجة ، وتيارًا وراء تيار ، ولهذا مَدلُولُه لأنّ الشاعر هنا لا يُؤدّى واجبًا فَرضَتْه عليه حَفلاتُ الشعر ، فرأى أن يُريح الجمهور ببعض ما يُرضيه ، ولكنّه رائدٌ يقود الناس إلى آفاق يحلُم بها ، ويدعُو إلى الصعود إليها مُصوّرًا معارج السمّو الراقى إلى هذه الآفاق ، ومعروفٌ أن الدعوة إلى العروبة فى الأقْطار العربية لم تظْهر على أيدى رجال السياسة إلاّ بعَد أن هَتفَ بها الشعراء فى الشرق العربى ودعوا إليها مُلحّين ، حتى كوّنوا رأياً عربيًا عامّا لم يجد الساسة بدًّا من الانقياد إليه، والسيْر تحت لوائه ، وكانَ الجارم فارسَ الحلبة الصّوال فى هذا السباق، إذ لم يكتفِ بقصائده الرنانة التى أنشأها فى مصـر ، ولكنه رحَلَ إلى أقْطار

شتّى فى مناسباتٍ عامة ليُعلن صوته المدوّى هاتفًا بالعروبة ، وداعيًا إلى تحقيق الوحدة العاجلة ، وكان ينتهزَ مواقف الرّثاء حين يُدعى لتأبين بعض الراحلين ومواقف المؤتمرات العلمية حين يمثّل المجمع متّحدثًا فى شئون اللّغة . كان ينتهز هذه المناسباتَ ليهتف بالعُروبة هتافَ الصبِّ الولوعِ ، فتدوى الألسنةُ بالهتاف ، وتتدفّق الأيدى بالتصْفيق ، وأحب أن أُعلن أمْراً هاماً يتعلق بمعنى العروبة عند الجارم ، وهو أنّه فى هُتافِه بهذا الشعار الحبيب ، كانَ يجعل القرآن والدين الإسلامى أساساً للوحَدة العربيّة ، فهو فى كل محفل يهتف فيه بتمجيد العروبة يقرن أسباب الروابط الحميمة بالإسلام والقرآن ، وما تعثرت الوحدةُ إلاّ لأنّ نفرًا من الشُّعوبيِّين خالفُوا منْهج الجارم، فكانُوا إذا ذكروا عوامل الوحدة العربية تجنبوا أن يذكروا الإسلام، مع أنّ الدول العربية لم تنهضْ فى عُصورهَا الزاهرة التى تحن إلى العودة إليها إلا بعزة الإسلام ، ومجدِ القرآن ، وقد ظهرت لدينا كُتُبٌ فى مصر وسوريا تتنكّر للإسلام ، ولا تعدهُ عاملاً من عوامل اليقظة العربية ، وعجيبٌ أن يكونَ الإسلامُ باعثَ النهضة الإنسانية فى العالم كلّه حين أخْرجَ النَّاسَ من الظلمات إلى النور منذ بعثته ، ثم يُنحَّى عن اليقظة العربيّة فى عصر كثرُتْ فيه الانحرافاتُ ، وطَغَتِ الأهواء ، لقد هَتَفَ الجارمُ برابطة الإسلام حينَ دعا إلى مجد العروبة صريحًا غير مجمجم ، وعالياً مُدويًّا غير هامس ، ولا منخفض ، ولاقى من التجاوب العاطفىّ فى المحافل الباهرة ماشفى صدورَ قوم مؤمنين وأَذْهَب غيظ قلوبهم ، فهو فى حفْل التأبين المُنعقد ببغداد فى يوم الزهاوى يتحدث عن العلاقات بيْن مصر والعراق، فيجعلُ الإسلام أقوىَ هذه العلاقات ، ويجعل عهد الخليفة العباسى الرشيد رمزَ المجد الغابر ، ومثار الأمل الموعود ويقول فى صراحة واضحة [1] :

(١) الديوان ص ٣٨٦ .

سموتُ إلى بغداد والشوقُ نحوها يُساوِرنى حينًا وحينًا أساوره

كلانا نأى عن أهله وعشيره ليلقاه فيها أهلُه وعشائره

ديارٌ بها الإسلام أَرْسلَ ضَوءه فسارَ مسيرَ الشس فى الأفق سائره

ومدَّتْ بها الآدابُ ظلا على الورى تَساوتْ به آصالهُ وهو اجره

تجلى بها عهد الرشيد وعزُّه وزاهرُ ملك الفاتحين وباهره

وفى حفل التأبين الخاص بالملك الغازى وقد اجتمع به الوافدون من كلّ صوب ، وهُم من عِلْيةِ المفكرين فى دُنيا العرب ، تحدّث الجارم عن الملك الراحل ليمهّد للحديث عن صلة العراق بمصر واتفاق الشعور بين الوطنين وكأنّهما وطن واحد ، ثم يلتفتُ إلى أسبابَ هذه الأخوّة الواشجة ، والقُرْبَى الحميمة ، فيردّها إلى الإيمان وإلى الدين ، وإلى اللغة العربية حين يقول [(١)]:

حمامةَ وادى الرّافدَيْن ترفّقى بَعثتِ الهوَى ما كانَ منه وماجدًا

ففى النيل أرواحٌ ترف خوافقٌ تُقاسُمك التاريخَ والدين والودا

إذا مسّت البأساء أكنافَ دِجلة قرأتَ الأسى فى صفحة النيل والكمدا

وأن طُرفتْ عينٌ ببغداد من قذًى رأيتَ بمصرٍ أعيْنا مُلئت سهدا

إخاءٌ على الفُصحى توثّق عهده وشُدّتْ من الإيمان أطرافُه شدّا

لنا فى صَميم المجْد خيرُ أبوّة زُهينَا بها أصْلا وتاهت بنا وُلدا

وفى اجتماعه بمؤتمر الثقافة العربى الأوّل بلبنان ، حين أقامته الجامعة العربية ببيروت دليلاً على الترابط الثقافى بَيْنَ أعضاء الجامعة ، وكانت الدعوة حينئذ فى سوريا والعراق للعروبة وحدَها ، يقُوم بها حزُب البعث متجاهلاً أدْنى إشارة إلى صلة الإسلام الحميمة بشعوب الضاد ، رأَى الجارم

(١) الديوان ص ٢٢٤ .

أن يُرْسى دعائم الوحدة على الإسلام ، فيذكّر الناس بغزواته الظافرة حين اقتْحمت حصون الشرك شرقًا وغربًا فدكّتْها دكًا ، واستأصَلَتْها استئصالاً فكانَ الفتحُ الإسلامى فتحَ عرفان وحضارة ، كما هو فتح حُريّة وإخاء ومواساة ! نعم ! فى بيروت لبنان ، وبين أقطاب حزب البعث هتفَ الجارم الأبى بقوله(١) :

مجدٌ على الدهر مذ كانتْ أوائلُه ودولةٌ لبنى الفصحى وسلطانُ

الناسُ عندهمو أبناءُ واحدة فليسَ فى الأرض ساداتٌ وعبدان

تراكضوا فوقَ خيل من عزائمهم لهمْ من الحق أسيافٌ وخُرْصان

وكلّما هدموا للشرك باذخةً أُقيم للدّين والقسطاس بنْيان

أقلامُهم سَايرت أسياف صولتهمْ للسيف فتح ، وللأقلام عرفان

فأين من شرعهم روما وما تركت وأين من علمهم فرس ويونان

كانوا أساتذة الآفاق كم نهلَتْ من فيضهم أُمم ظمأى وبلدانُ

وفى نونيّته الرائعة التى ارتجت لها آفاق السودان ، وقامَ بتلحينها كبارُ الفنانين هناكَ ، وابتدر لمعارضتها الشعرية أعلامُ الشعر بالجنوب تحدّث الشاعر عن الصّلات القوية بيْن مصر والسودان ، ورجَع إلى مجد الفتح الإسلامى الزاهر يستنشق ريّاه ، ويرسل أنسامه العاطرة إلى الأرواح حين قال فى قوة :

إن جزت يوماً إلى السودان فارعَ له مودةً كصفاءِ الدرِّ مكنوناً(٢)

عهدٌ له قدرعيناه بأعْيننا وعروةٌ قد عقدناها بأيدينا .

---

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) الديوان ص ١٤١ .

ظـلّ العروبــة والقـرآن يجمعنـا وسلسـلُ النيـل يَرويهــم ويروينا
أشـع فى غَلَسِ الأيـام حـاضَرنا وضَاء فى ظلمـة التاريـخ ماضينـا
مجد على الدهر فاسألْ من تشاء به عَمْرًا إذا شئت أو إن شئت آمونـا

ولعلّ الجارم كان يأنس فى حديثه عن الإسلام بصلته بالنّسب النبوى الكريم ، حيث تنتمى أسرته الشريفة إلى الحسن بن على رضى الله عنه نجل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وقد فاخر بذلك حين قال مخاطبًا رسول الله (١) :

ولى نسـبٌ يُنَـمى لبيْتك صَاننى وَصَانَتــه منــى عــزة وإبــاء

كما خاطب ساكنى الحجاز فخورًا بانتمائه إليهم فقال(٢) :

يـا جـيرةَ الحـرمِ المزهـوّ ساكـنه سقى العهود الخوالى كل منسكب
لى بينكم صلةٌ عزَّتْ أواصـرها لأنهـا صلــة القــرآن والنســب

وفى قصيدة «أبو الزهراء» التى تصدّر بها ديوانُ الجارم عن محبةٍ واعتزاز تحدث الشاعر عن أثر الدعوة الإسلامية فى يقظة المسلمين ، وكيفَ أخرجهم من الظلمات إلى النور ، ثم توسّل إلى الرسول كى يسأَل الله أن يعود مجدُ العروبة كما كان من قبل ، فليسَ يرجعُ هذا المجدُ دونَ هَدى محمد ورعايته ، فنحن جنوده ، وهو القائدُ ، نرمى بالسهم ليسدِّدهُ ، ونعتصم بالراية التى يحميها بعونه ، يقول الجارم(٣) :

نبىّ الهدى قد حرّق الأنفسَ الصَّدَى ونحـن لفيضٍ مـن يديـك ظِماءُ

(١) الديوان ص ٢٠ .
(٢) الديوان ص ٣٢٩ .
(٣) الديوان ص ١٩ .

حَنَنّــا إلى مجـــد العروبــة سامــقاً ... ومـا نحنُ فى ساحاتــه غربـاءُ

زمــانَ لـواء العـرب يُزهَــى بقومــه ... ومـا طالَـــه فى العالمين لـــواء

نُناجيك هـــذى رايــةُ العُرب فاحِمِها ... فمن حَولها أجنـادك البســلاء

رَمينا بكفٍ أنـــتَ سـدّدت رميهـا ... فما طَاشَ سهـمٌ أو أخَـل رمـاء

وبهذا الارتباط الوثيق بينَ العروبة والإسلام ، كانَ هتاف «الجارم» بالعروبة هتافَ العربى المسلم الذى يلُوذُ بدينه إذا هبّت العواصف ، وترامت الأعاصير . وهذا ما حَرصت على توكيده ليعرف مَنْ لـم يعرف أنه لا عزًّ للعرب بغير الإسلام !

ـ ٢ ـ

زارَ الجارمُ عواصم الدول العربية فى مناسباتٍ علمية وتاريخيّة ، فكانَ الجمهورُ يحتشد لسماع ما يُبدع من الشعر احتشاداً لم يقع لغيره بعدَ شوقى وحافظ ومطران ، إذ انفردَ الجارمُ بإبداعٍ منقطع النظير فى اختيار ما يصوغ ، وفى إلقاء ما يصوغ ، وقد نسيتْ جرائدُ بغداد ما قيل فى المؤتمر الطبى المنعقد فى العاصمة سنة ١٩٣٨ ، وقد حضرهُ كبار الأطباء ليقررُوا مسائل هَامّة فى فنّهم الحيوى ، نسيت جرائدُ بغداد قرارات المؤتمر ، لتفيضَ أيّامًا جاوزت الأسبوع فى الاحتفاء بقصيدة الجارم ، وقد تحدث الأستاذ طه الراوى وكيل وزارة المعارف حينئذ عنْ صدى قصيدة الجارم فقال : إنها أكدّتْ أن «أحمد شوقى» لم يَمت ، وأنّ الزعامة الشعرية لاتزالُ فى مصر ، وقد تُرجمتْ قصيدة بغداد إلى عدّة لُغات نظرًا لما أحْدثَته من صدًى رنان ، لأنّ الجارم كان فى رائعته شاعرًا ومؤرخًا وسياسيًّا فى آنٍ واحد ، ففى أظهر مجالى الشّاعرية تحدث

(١) الديوان ص ١٧٢ .

عن منزلة بغداد فى القديم والحديث ، ورنَّح الأسماع حين قال[1] :

بغدادُ يا بلدَ الرشيدِ ومنارةَ المجد التليدِ
يا بسمةً لما تزل زهراءَ فى ثغر الخلود
يا سَطْر مجد للعروبة خُطّ فى لوح الخلود
يا راية الإسلام والإسلامُ خفّاق البنود
يا مغْرب الأَمل القديم ومشرقَ الأمل الجديد
يا جَنة الأحلامِ طال بقوْمنا عهدُ الرقود
يا زورة تُحيِى المنى إنْ كنت صادقة فَعُودى

وبعد أن تحدث حديثَ أستاذ التاريخ الأدبى بلسان الشاعر الملهم تحدث عَن مجالس الأدب فى عهد الرشيد وعن القيان الضاحكات الفاتنات النُّجْل فقال :

الساهرات مع النجوم الآنفاتُ من الهجود[1]
خَبأَ الجمالُ لهنَّ كنزًا بْينَ سالِفةٍ وجيد

مضى إلى تصوير المجد الزاهر فى العصر العباسى ،حيثُ صوّر مجد الرشيد ، وما حَازَهُ من سلطانٍ جَعلَ عواهل الغرب يطرقون بابه آملين . فى موكب عزيزٍ بالجيْش والقوة والعتاد ، ذليل بالخضوع لله فى ساحةِ العبادة وسفُراء الدول من ورائهم خاشِعون دَهِشون .

سَاروُا لِقَصْرِ الخلدِ يعشى طرفهم وهَجُ الحديد[2]

---

(١) الديوان ص ١٧٣ .

(٢) الديوان ص ١٧٤ .

يتعثّرون كأنهم يمْشون فى حَلَق القيود
الجوّ يسطع بالظبا والأرض تزخر بالجنود
حتّى إذا رجعُوا بَدَا بجباهم أثرُ السجود

ولا مجدَ أبرعُ من هذا المجد ، ولا تصويرَ أروعُ من هذا التصوير ، ثم مضى الشاعر يستحث أمّة العرب فى الحاضر أنْ تركض ملء العنان ، وأنْ تعمل للسيادة والاستقلال وأن تتوثّب للمجد فى آفاقه العالية :

المجدُ أن تتوثبى وإذا وَثبتِ فلا تحيدى[1]
وتحلقى فوق النجوم بلا شَبِيهٍ أو نديد
وإذا شَداَ الكونُ المفاخَر كُنت عنوان النشيد

ولا يظن بى القارىء مُبالغة إذ أشيدُ بهذه القصيدة ، فقد كَتب الدّكتور زكى مبارك يقول عَنْها، وهو لا يُحسَبُ من أصدقاء الجارم :[2] مخاطباً إيَّاه :

أيّها العدّو المحبوب ، تذكرْ أنّك كنتَ حقًّا وصدقاً شاعِرَ مصر فى المؤتمر الطبى العربى ، وستمر أَجيالٌ وأجيالٌ ولا ينساك أهُل العراق ، هل تعرفُ مصر أنّك رفعتَ رأسها فى العراق ، وأنّك كنت خليفة شوقى فى المعانى ، وخليفة حافظ فى الإلْقاء ، وأنّنى أطلب من مصر المستحيلَ حين أطلبُ منها إنصافك .

أما الكاتب البليغ الأستاذ عبد المنعم خلاف فقد قال بهذا الصدد[3] :

ثم وقف الجارم يُرسل قلبَهُ فى صوته المعهود الذى يُخيل إلىَّ أنّه كلّه آهةٌ

---

(١) الديوان ص ١٧٦ .
(٢) الجارم فى ضمير التاريخ ص ٥٣١ .
(٣) الجارم فى ضمير التاريخ ص ١٩٨ .

عميقة ، من فرطِ الشجو ، وإثارةِ النفس ، واستحضار المعانى الكامنة التى لا تظهَرُ إلاّ إذا تلا لها ساحرٌ رقية ، أو عَزفَ لها عازفٌ برنّة ، أو شَدَا لها شادٍ ، أو خَيَّل لها مُخيّل بريشة ، وقَف الجارم يقلّب وجهه فى السماء والأرض والجهاتِ الأربع ، ويمسحُ على أبصار الجميع بحركاته ويُرسل نشيده، فيخيّل إلىَّ من سحره أنّ كلماته أجسامٌ تسعى ، أو أمواجٌ تطغى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الجادة ، ثم بالفخر النافخ ، ثم بالضحك المرسل ، ثم بالعزم الدافع ، ثم بالأمل القريب . وندع بغداد إلى حديث السودان، فقد زَار الجارم السودان فى مناسبةٍ من مناسبات الاحتفال بعيد الجلوس الملكى ، وتلا قصيدته التى مطلعها :

عيدَ الجلـوس صَدقـتَ وعدك ⠀⠀⠀ بالمُنَى وصدقــت وعــدى [1]

فكانت القصيدة مثار عاصفةٍ من التصفيق الحاد ، والهتافِ المتواصل ، وقامَ الأستاذ الشاعر الكبير محمد أحمد صالح عضو مجلس السيادة فى السودان فيما بعد ، فأعلنَ عن إقامةُ حفلةٍ خاصة بتكريم الشاعر الكبير، وسجل أسماء الشّعراء الذين سيكرّمون الجارم بتحيّاتهم العاطرة ، وحين أقيمت الحفلة ألْقَى الأستاذ صالح وكَانَ ينشرُ قصائده فى السودان بتوقيع الجارم الصغير ، لفرط إعجابه بالجارم الكبير ، ألقى قصيدةً بدأها بقوله :

عيدَ القصيــد صدقتَ وَعْدك ⠀⠀⠀ فى المنـى وصدقــت وعــــدى

أما الشاعر الكبير عبد الله عبد الرحمن فقد حيّا الجارم برائعةٍ من روائعه، وتعرّض لوصفِ الحالة الأدبية فى السودان مشخصًا سماتها ، وقال إنّه يعرض على الجارم (عرض حالٍ) ليقوم بالتوجيه الأدبى المنتظر ، ومما قال عبد الله عبد الرحمن :

أمــا استعــارات البيــان فإنّهــا ⠀⠀⠀ عبءٌ ينوء به الشباب ثقـالاً [2]

---

(١) الديوان ص ٤٢٨ .

(٢) مجلة الرسالة ـ العدد ٨١١ .

هَا عَرْضُ حالى ، يا علىُّ ، مُقدَّمًا ما حائلٌ من دُون عرضى حـالاً

وقد التفتَ الجارم إلى الشاعر وقال مُداعبًا ، أنتَ تتكلم عن البيان ، وعَرضُ حالك يا أخى من البديع ، فقال الشاعر كلها بلاغة يا مولاى! وفى قصيدة الجارم هذه معانٍ حماسية تستنهض الهمم ، وتُحيى موات الآمال ، ومنها[(١)] :

مَهْـرُ البطـولـة مــا أجــلَّ فمــــن يُــوفّى أو يُــؤدى

لا تَبْـــكِ ان عـزّ السبيـــل فـإنّ نوحـك غـير مجـدى

واعمْل بجِهدكَ ما استطعتَ فلْـن تَفـوزَ بغـير جهـد

فالسيـفُ غِمْـد مـا أقــامَ ولم يُفـارق جـوفَ غمـــدِ

ثم تطرّق إلى وصف من كرّموه من بنى القطر الشقيق فقال صَادِقًا :

إنـــى نزلـتُ بجـــيرةٍ بُسْلٍ على النجـداتِ حُشْدِ

أُنسـيت أهلــَى بينهـم وسلوتُ إخــوانى وُولْــدى

الضيـفُ فى ساحاتهـم يجتــازُ مِــن رِفـدٍ لرفــد

عقــدوا خَناصرهـم على صِـدْق الوفـاء أشـد عقــد

ومضـــتْ أواصرنـا تمـد إلى العروبـــة خـير مــدّ

وكان هذا فى سنة ١٩٣٧ ، وبعدَ أربعة أعوام تلقّى الجارم دعوةً من أدباء السودان لزيارة الخرطوم . والشاعر يعلمُ مدى احتفاء السودانيين بأدبه ، ويعرفُ أنّ قُدومه سيكُون موسماً من مواسم البيان فى عكاظ الخرطوم ،

(١) الديوان ص ٤٣٠ .

فاستعد بقصيدة نونيّة عارَض فيها أحمد شوقى وابن زيدون معًا ، والجارم حين يعمد إلى المعارضة القوية إنّما يَهدف إلى استذكارِ مجْد الجزالة الحيّة ، والديباجة الناصعة ، حين يُحيّى عهود البيان العربى فى أرفع مجاليه ، والمعارضةُ الشعرية من صميم الفنّ الشعرى لدى الشاعر المقتدر من أمثال شوقى والجارم ، ولكنها تتحول إلى محاكاة ذليله لدى المتشاعر القلّق ، وقد جَارى الجارم الفحُول فَوازَاهم ، وإن اعترف أنّه جذبَ انتباههم حين قال[1]:

واصـدح بنونيّـةٍ لما هتفـت بهـا   تَسرَّق السمعَ شوقى وابن زيدونا

وأحكم اللحن يا ساقى وغنّ لنا   (إنـا محيّوك يا سلمـى فحيينـا)

أما النونية فقد افتتحها الجارم بهذا المطلع [2] :

يا نسمـةً رنّحـت أعطـاف وادينا   قفـى نُحَييّك أوْعُـوجى فحّيينـا

هبتْ بنا من جنوب النيل ضاحكة   فيهـا مـن الشـوق والآمال مـافينا

إنّـا عـلى العهـد لا بـعدٌ يحـوّ لنا   عـن الـوداد ولا الأيـام تنسينـا

أثـرت يـا نسمة السـودان لاعجـةً   وهجت عُشّ الهوى لو كنت تدرينا

ونحى على خافقٍ فى الصدر محتبس   يكـاد يطْفـر شوقًا حيـن تسرينـا

مرّتْ بـه سنـواتٌ مـا بهـا أرج   مـن المُنـى ، فتمنّـى لـو تمرّينـا

وتنقّل الشاعر من خاطر إلى خاطر ، فَوصَف نَهر النيل وما حولَه من الرياض والمُروج ، ونَاجَى طير الخمائل فخلع عليها إحساسه الشاعرى ،

---

(١) الديوان ص ١٤٣ .

(٢) الديوان ص ١٣٩ .

وَحَسبها تُبادِلُه مشاعره ، وطالَ الطريق عليه فأجادَ وصَفه كما وصف طريقَ بغداد فى مرثاة الزهاوى ، وللشاعِر ولعٌ بالصحراء فهو لم يَنْس ما أوْحَتْهُ له صحراءُ بغداد وصحراء السودان مَعا :

والرملُ يزخـر فى هول وفى سعــة ... كالبحر يزخُر بالأمواج مشحونا[1]

وكـمْ سـراب بعيـد راح يخدعنـا ... فقلت حتي هُنـا نـلقَى المرائينــا

وما يقتصرُ وصف الصحراء على المشهد الطبيعى وحده ، بلْ لابدّ أن ينتقل بالشاعر خاطرهُ إلى مجدِ الصحراء فى عزّ الإسلام وفتوحِ العرب ، فيهتف فى شوق وحنين[2] :

صحـراء فيــك خبيئًـا سر عزتنـا ... فأفصحى عنْ مكان السرّ واهْدينا

إنّا بنو العرب يا صَحراء كم نحتت ... من صَخرك الصلدِ أخلاقاً أوالينـا

عَـزّواَ وعـزت بهـم أخـلاقُ أمتهـم ... فى الأرض لمّا أعزّوا الخلـق والدينـا

منصـةُ الحكـــم زانوهـــا ملائكـــةً ... وجـذوة الحـرب شبّوها شياطينـا

كـانُـوا رعـاةَ جمـال قبـل نهضتهم ... وبعدهـا مـلئوُا الآفــاق تمدينــا

إن كبّرت بأقاصـى الصّين مئذنــة ... سمعت فى الغَربْ تهليـل المصلينا

أمّا لبنان فهى تزخر بكبار الشعراء من أمثال شبلى ملاط وبشارة الخورى، وقد أسْهمَا مع الجارم فى مواقف الشعر الذائعة ببغداد والقاهرة ، وكل من الشعراء الثلاثة يعرف قدر زميليه ، لذلك حرص الجارم فى زياراته المتكررة للبنان أن يكون فى مستوى شعرى يقنع الجمهور بزعامته الأدبية ، وهذا ما كان عند زيارته الأولى للبنان عام ١٩٤٤ مشاركاً فى حفل المؤتمر

---

(١) الديوان ص ١٤٢ .

(٢) الديوان ص ١٤٣ .

الطبى نيابة عن المجمع اللغوى بمصر ، فقد أنشد قصيدة عصماء ، بدأها ببكاء الشباب كما فعل شوقى حين زارَ (زحلة) إذ أنشد قصيدةً بدأها بذكريات شبابه ، ومطلعها :

شيعّت أحلامى بقلب باك ولمحت من طُرق الملاح شباكى

أما الجارم فقد ابتدأ قصيدته بقوله (١) :

ألقيتُ للغيد الملاح سلاحى ورجعتُ أغسل بالدموع جراحى

ولمحتُ ريحان الصبا فرأيتهُ ذبلتْ نضارتُه على الأقداح

كان الشباب طماح لاعجة الهوى واليومَ يرْفع ساعديْه طماحى

مَن لى وقد عبثَ المشيب بلمتى بِضياء ذاك الفاحِم اللمّاح

لو أستطيع لبعت عمرى كله لمنى الصبا وأريجه النفّاح

أيام أوْتارى تغرّد وحدها وتكاد تسكرُ فى الزجاجة راحى

وهى قصيدةٌ عصماء قَامَ لها الحفل وقعد ، وكان الشاعر موفقاً حين انتقل من حديث الصّبابة إلى تحية المؤتمر الطبى انتقالاً يسميّه البديعيون (حسن التخلص) ولكنّه فى رأيى وثبةٌ جارميّة محلّقة تتجلى فى قوله (٢) :

عادتْ إلىّ حبائلى فلممتها ورَضيتُ من ضحك الهوى بنواحى

أشكو وما الطبّ الحديث براحم شجوى ولامتسمعٌ لصياحى

هل بين مؤتمر الأساة مجرّبٌ شافٍ لأدواء الصبابة ماحى

والطب لا يصلُ المدى إنْ لم تصل جدواهُ للأرواح والأشباح

---

(١) ديوان الجارم ص ٤٨١ .

(٢) ديوان الجارم ص ٤٨٥ .

أما حديث لبنان وإسهامُه فى مناصرة اللغة العربية بما وضع علماؤه من قواميس لُغوّية ممتازة وما سدَّدُوا به ديباجة الفصحى من بيان مشرق ، فقد مثّل عُنصرًا حيويًّا من عناصر القصيدة الممتازة تجلّى فى قول الجارم (١) :

لبنان صُنْت الضاد فى لأوائها ... من شرّ ماحٍ أو هَوى مجتاح

فى البدو لوّحها الهجير فلم تجدْ ... إلاّ ظلالك نجعة الملتاح

جمعتْ رجالك زهرها فى طاقة ... عَبق الوُجود بنشرِها الفوّاح

نظموا لها عقدًا يرفّ شعاعه ... بلآلئٍ ملء العيون صحاح

وحموا كتاب الله جل جلاله ... من لغو فَدْمٍ أو هراء إباحى

فانظر «إلى البستان» هل تلقى به ... إلاّ ورودًا ، أو ثغور أقاحى

وقد تتالت كلماتُ الإطراء فى الصحف اللبنانية إعجابًا بقصيدة الجارم ، فآثر الشاعر الكبير الأستاذ بشارة الخورى أن يعارضها بقصيدةٍ رنانة نظمها فى تحيّة الرئيس السورى شكرى القوتلى ، وبدأها بقوله (٢) :

فِتنُ العيون وثورةُ الأقداح ... صبغت أساطير الهوى بجراحى

روُحٌ كما انحطمَ الغدير على الصفا ... شُعَبًا مشعّبة إلى أرواح

للحب أكثرُها ، وبعضُ كثيرها ... لُرقى الجمال وبعضها للراح

أَنا لا أشيّع بالدموع صبابتى ... لكنْ ألّف جناحها بجناحى

ذَرّتى وما زرع الزمان بمفرقى ... ما كنتُ أدْفِنُ فى الثلوج صداحى

مَن كان من دُنياه يقبضُ راحَه ... فأنَا على دُنياى أقبض راحى

إنّى أفدّى كلّ شمس أصيله ... حَذَر المغيب بألفِ شمس صباح

---

(١) ديوان الجارم ص ٤٨٤

(٢) مجلة الكتاب (ديسمبر سنة ١٩٤٦ م) .

ورُوح المناقضة لقصيدة الجارم واضحة فالشاعُر لا يشيّع بالدموع صبابته، والجارمُ يبكي هواه الماضي ، والجارُم يرفع ساعْديه يائسًا من الحبّ بعد المشيب ، وبشارةُ يقول : إنّ الشّيب لا يدفعه إلى أن يئد عواطفه فى الثلوج ، والجارم يرفَعُ ساعدْيه مستسلمًا وقد يئس من وِصال دنياه ، ولكنّ بشارة يرّد عليه قائلاً [1] :

مَن كـانَ مِنْ دُنيـاه يقبض راحــه فأنَـا علـى دُنيَاى أقبـض راحـى

وبشارة يلجأ إلى المستحيل ، ويقولُ مالاَ يُعقَل حينَ يُفدىّ الأصيل الشاحبَ بالصّباح المشرق ، وكيف يُعقل هذا ؟ أمّا الجارم فقد صَدقَ حين قال [2] :

لـو أستطيعُ لبِعـت عمـرى كلـه لمُنَـــى الصّبـا وأريجـه النفــاح

مَن لى وقد عبث المشيـب بلمتـى بضيـــاء ذاك الفاحـــم اللّـماح

أما زيارة الجارم الثانية سنة ١٩٤٧ عضوًا فى مؤتمر الثقافة العربى الأول ببيروت فقدْ نفحت السامعين بمعلّقة رائعة ، تَضمنت فنون الغزل ابتداءً كعهد الجارم وبشارة معًا ، وقد أشرتُ إلى بعض أبياتها الحماسيّة فى صدْر هذا المقال ، وقد تحدث عن العروبة حديثَ المعجب بتاريخها الفخور بمآثرها ، وأهابَ برجال الحاضرِ أن يسلكوا سننَ الغابرين ، وأن يأخذوا ثأرهم من الغرب الحاقد المُتَنَمِّر ، وذلك بعض ما عناه فى قوله [3] :

تنّمـــر الغـــرب واحمرّتْ مخالبـــه وأرهفتْ نــابَها للفتــك ذؤْبــانُ

ثــاراتُ طــارق الأولى تؤرّقهـــم ومَالِمـا تتــركُ الثــارات نســيانُ

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الديوان ص ٤٧ .

(٣) الديوان ص ٨٤ .

تيقّظ الليثُ ليثُ الّشرق محتدمـا   فارتـجّ منـه الشّرى واهتّز خِفّان

غضبـانَ رد إلى اليَافـوخ عُفْرتـه   ومن يُصاول لَيْثًا وهـو غضبان ؟

لقد حمينـا أبـاة الضـيم حوزتنـا   مِن أن تُباح ، ودِنّاهم كما دانوا

وللجارم لبنانية ثالثة قالها سنة ١٩٤٣ حينما ثار لبنان ثورته الوطنية ، وفاز بانتخاب نوابه ، وقد وصف القطر الشقيق وطبيعته الرائعة وصفًا نابضًا بالحركة ، مكتمل الصورة فى ملامحها الزاهية ، ثم ألمّ بمفاخر اللبنائين العربية فقال(١) :

وسجايـا أهـله أنفاسـه   كـم نُفحْنا مـن شذَاها الطـيّب

كتَب المجد لهـم تاريخهـم   فى جبيـن الدهـر لا فى الكتـب

كل شـهم أرْيحىّ أغـلبٍ   مـن كريـم أريحى أغلـب

بيْن غسـّانَ وعدنـان لهـم   نسـبٌ يرفـع شـأْوَ النسب

نصبـوا فى كـل أرض رايهـم   ما دروْا فى المجد معنى النصب

وطوْوا شـرقًا بـشرق ومضـى   سيلـهم يزَحـم شـط المغـرب

وفى قصائد أخرى لوحَاتٌ تتحدث عن غير لبنان وبغداد والسودان من بلاد الفصحى حديث المعجب المشيد ، مما يؤكدّ هيام الجارم بالعروبة فى شتى أقطارها بدون تفريق . .

ثم ماذا ؟ هل نسى الجارم أحداثَ فلسطين ؟ مِن المحال أن يكون شاعر العروبة نائم الجفن عمّا اشتعَل فى هذا البلد الشهيد من نيران ، لقد هيجّتْ شجوَنه قبل التقسيم مكائدُ الصهيونية فأخذ يحذّر العرب من حبائلها

---

(١) الديوان ص ٢١٣ .

الخاتلة، ويستنهض الهمم بما فعله البطل الخالد صلاح الدين من قبل ، ويحذر المسلمين أن يشهدوا أندلساً ثانية تضيعُ من أرض الإسلام ، ومازالتْ حسرةُ الأندلس الماضية ذاتَ وقود . اسمعْه ليقول [١] :

قلبى وفَيْضُ دموعى كلمّا خطرت ذكرى فلسطين خفاقٌ وهتّان

لقد أعَادَ بها التّاريخ أندلسًا أخرى ، وطافَ بها للشر طوفان

ميراثنا فى فتى حطّين أين مضى وهل نهايتنا يُتْمٌ وحرمان

رُدّوا تراث أبينا مالكم صلة به ولا لكم فى أمرنا شان

مصيبةٌ برم الصبر الجميل بها وعزّ فيها على السلوان سلوان

بنى فلسطين كونوا أمّة ويدًا قد يختفى فى ظلال الورد ثُعبان

وكيف يأمن رُعيانٌ وإن جهدوا إذا تَردَّى ثياب الشاه سرحان

وحين تقدمت الجيوش العربية فى الموقعة الأولى لمنازلة الصهيونية ، كان الجارم أقوى الأصوات الشعرية حماسة ، وأعلاها رنينا ، حتى ذَهَب ناقد بمجلة الرسالة إلى أن قصيدة الجارم فى هذه المناسبة أقْوَى ما قال ، وأنا أنقلُ قوله بِنصه تحت عنوان : قصيدة الجارم فى فلسطين [٢] .

« الحق أن قُوى مصر قد بدت فى معركة فلسطين بشكلٍ جمع الدهشة إلى الروعة ، فما كنا نحن نظّن أنّا هكذا ! وليستّ هذه القوى فى الناحية العسكرية فحسب ، بل هى فى كل شىء ، حتّى الشعر الذى كان اتخذ له أخيرًا وسادة من ريش النعام ، هبّ من رقدته ، يشيد بالبطولة ، وينطق بما تجيش به القلوب ، ولقد حَشد الأستاذ الجارم بك كلّ قواه الشعرية فى القصيدة التى ألْقاها بالمذياع مساءَ يوم الخميس الماضى ، وما أظّنهُ قالَ

(١) الديوان ص ٨٥ .

(٢) الرسالة ٢١ / ٦ / ١٩٤٨ م للأستاذ عباس خضر .

أحسن منها ، أو مثلها ، فجاءتْ آيةً من الآيات المصرية فى معركة فلسطين، قال فى مطلعها :

تألــقّ النّصر فاهتزّت عـوالينــا ... واستقبلتْ موكبَ البشرى قوافينا[1]

ثم قال :

أليسَ مـن أحجيـات الدهــر قُبَّرة ... رعنـاءُ تزحـمُ فى الوكـر الشواهينـا

وتائــةٌ مالَــهُ دار ولا وطــــن ... يسطـوُ علـى دارِنـا قسرًا ويقصينا

فيا جبالُ اقذفى الأحجارَ مـن حممٍ ... ويـا سماء امطـرى مُهـلا وغسلينا

ويـا كواكـب آنَ الرجـم فانطلقـى ... ما أنتِ إنْ أنتِ لْم ترمـى الشياطينا

ويا بحارُ اجعلى المـاء الأجاج دمًا ... إذا عَلــت رايـةٌ يومـًا لصهيونـا

العهدُ عندهـم خلـف ومجحـدة ... فـما رأيناهــــمُ إلا مرائينــــا

مــا ذلك السُمّ فى الآبـار ويُحكُمو ... ومـن نقاتـل : جندًا أم ثعابينا ؟!

بنى العروبـة هـذا اليـوم يومكمـو ... سيرُوا إلى المـوت إنّ المـوت يحيينا

وخلـفوا للعـلا والمجـد خالـدة ... تبقى حديــث الليـالى فى ذرارِينـا

لقد صدئنا ، ودون الغمد منفسح ... فجــردوا حـدَّ ماضينـا لآتينـا

وقربوهــــم قرابيــنًا محــــررة ... للسيف إن يَرْض هاتيـك القرابينا

مـاذا إذا مـا فقدنـا إرث أمتنـــا ... ومـــا الــذى بعده يبقى بأيدينا . .

إن قصائد الجارم التى تغنّى بها فى آفاق العروبة ، يجب أن تكون أناشيد تُردد على مسامع الأجيال ، لأنها صُور البعث ، وهتاف المجد ، ودعامة التاريخ .

---

(١) الديوان ص ٢٨٧ .

لن تجدَ شاعرًا عربيًّا فى القديم والحديث أشادَ باللغة العربيّة ، وتغنّى بمحاسنها الرائعة كما أشاد على الجارم ، لأنّ الشاعر الكبير كانت حياتُه منذُ شبَّ عن الطوق إلى أنْ لقى ربه خدمة متصلةً للغة العربية ، فقد حَذقها طالبًا ، ودرّسَها أستاذًا ، وكَتبَ عنها البحوث الضافية مؤلفاً ، ووجّه القائمين على تدريسها مفتّشا ومُوَجِّهًا، وعاونَ النشء على إجادتها بسلسلةٍ من الكتب فى النحو والبلاغة لم يُكتب لغيره أن يبلغ شأوه فيها ، سهولة تناول ، وحُسن استنباط ، وجودةً امتحان ، عن طريق السؤال والجواب ، هذا الشغفُ البالغ لدى الجارم قد تَشربه طفلاً صغيرًا ، منذُ رأى الشيخ حمزة فتح الله يدخُل الفصل الدراسى، وله هيبتُه فيناقش الطلاب الصغار ، ويخضعُ له الأساتذة فيهرعون إلى تَقْبِيل يده ، ويأتى موظّفو رشيد الكبار فيجلسونَ منه مجلس الابن الخاشع من الوالد الشفيق ، وقد دَرسَ الجارم حياة الشيخ حمزة فيما بَعد ، وكُتب له أن يقول فى حفلة تأبينه خطابًا دوّتْ به الأحاديث ثناءً مستطاباً بعد إلقائه ، وقد تحدّث الجارم عن أستاذه فقال كلامًا كأنه يتحدث به عن نفسه ، إذ كانَ يَحْذوُ حَذوه ، ويقتفى خطاه، قال الجارم فى حفلة التأبين [1] :

---

(١) جارميات ص ٣٤

« وجَد الشيخ ـ لا أعطش الله تُربته ـ مجالاً فسيحا للنّهوضِ بالعربية الشريفة فى وزارة المعارف فشنّ فيها على العاميّة حرباً شعواء ، استعر لظاها ، واشتبكتْ ظباها ، فما فَتّ يأسٌ فى عضده ولا زَحزحَه قُنوط عن قصده ، حتى إذا ركد الغُبار ، وسكت الإعصار ، ظهر الشيخ وهو يحمل راية النّصر باليمين ، وقد قَطَع من عَدّوته الوتين . »

« نَفَذَ إلى المدارس من روحه الكبيرة نور تطلّع إليه الشباب فملأ عيونهم شعاعه ، وبهرَ نفوسهم لمعانه ، واستبانت لهم الطريق فأعملوا عَزائمهم إلى ذاتِ الضّاد ، ليجتلوا محاسنها ، والشيخ أمامهم فى هذا السفر الطويل يهدى الضال ، ويصل المنبت. . . فلما لَمع سيف الفجر حتى هلّل السّفر وكبرّوا وقد أوصلهم الشيخ إلى إربتهم فحمدوا السرى ، واستقرت بهم النوى وتجلت لهم لغة القرآن ناصعةً خلابة فقطفوا أثمارها ، وتذوقوا أسرارها » .

أجل ، لقد نظم الجارم فى الهيام بالعربية مالمْ ينظمه شاعر من قبله ولا من بعده ، هذه اللغة العذبة الفريدة التى أجادَ وصفها الدقيق حين قال فى شاعريّة مكينة(١) :

وَسْنى بأخْبية الصحراء يُوقظها	وحىٌ من الشمس أو همس من الشهب
روح من الله أحيَتْ كل نازعة	من البيان وآتَتْ كل مطّلب
تُحدى بها اليعملات الكوم أن لغبت	فلا تحسُّ بإنْضَاءٍ ولا تعب
جزيرةٌ أجدبت فى كل ناحية	وأخصبتْ فى نواحى الخلق والأدب
جدب به تَنبت الأحلام زاكية	إنّ الحجارة قد تنشقّ عن ذهب
تودّ كل رياض الأرض لو مُنحت	أزهارها قُبلةً من خدها الترب
وترتجى الغيد لو كانت قلائُدها	نظماً من الشعر أو نثرًا من الخطب

(١) الديوان ص ٣٢٧ .

هذه اللغة التى توّد كل رياض الأرض لو مُنحت أزهارها قُبلةً منها ، والتى تُريد الغيد أن تكون عقودها من دررها البيانية ؟ ماهى ؟ إنهّا التى نزل بها وحى الله ، وتكلمت بها سور القرآن ، ودعا بها رسول الله فى منطقٍ هاشمى الوشى ، فطابت به أنْفُس الأيام ، كما هزت الراسيات الشمْ (١) :

نورٌ مـن الله هـالَ القـوم ساطِعُه ... وليـسَ يُحجـب نــور الله بالحجـب

تكلمـتْ سُـور القـرآن مفصحــة ... فأسكـنَتْ صخب الأرماح والقضب

وقـامَ خَيرُ قريـش وابـنُ سادتهـا ... يـدعُــو إلى الله فى عــزمٍ وفى دأب

بمنطقٍ هاشمى الوشى لو نسجت ... منـه الأصائـل لم تنْصـل ولم تغـب

طابتْ به أنفسُ الأيام وابتهجت ... ومَــرّ دهــر عليهــا وهــى لم تطب

وهزّت الراسيات الشـم وارتعدت ... لهولـه الباتــرات البيــض فى الـقُرب

فازتْ بركنٍ شـديـدٍ غيـر متصـدعٍ ... مـن البيــان وحـبل غيـر مضطـرب

أمّا ما يرجوه الجارم للّغة من تواصل مدّها فى عهد الحضارة المزدهرة بالعلوم فأن يعكف عصبةُ الخير من أبنائها على وضع اللفظ المناسب للمخترع الحديث ، والمكتشف التليد، وفى المعاجم ما يسعف بالأرب ، إن للجارم رأياً فى الأسماء المخترعة ، سجله فى محاضراتٍ علميةٍ ، ودعا إليه إذ يرى أن تستخبر المعاجمُ عن مكنوناتها ، ففيها ما يجبُ أن يُبعث ليسدّ حاجة العلم أمام الطارىء الوافد ، وهو رأىٌ صادف المعارض والمؤيد ، وقد أحسنَ الجارم إبرازه فى قصيدته ، فى لمْحٍ خاطف يُغْنى عن التقرير الجاف فقال فى مهارة (٢) :

---

(١) الديوان ص ٣٣١ .

(٢) الديوان ٣٣٣ .

المحدثـات تسـدّ الشمـس كـثرتُها ولم تَفُـزْ بخيـال اسـمٍ ولا لقـب
والتّرجمات تشـن الحـرب لاقحـة على الفصيح فيـا للويـل والحـرب
نطـيرُ للفـظ نستجديـه مـن بـلدٍ نـاءٍ ، وأمثالُـه منّـا على كـثب
كمهرق المـاء فى الصحراء حين بدا لعينه بـارقٌ مـن عـارض كـذب
أَنَتْرِكُ العربـى السمـح منطقـه إلى دخيـلٍ مـن الألفـاظ مغترب
وفى المعاجـم كـنزٌ لا نَفَـادَ لـه لمـنَ يميّز بيـنِ الـدّر والسـخب
كـم لفظة جهـدتْ ممـا نكررهـا حتى قـد لهثت مـن شـدة التعب
ولفظة سجـنت فى جـوف مظلمة لم تنظر الشمس منها عين مرتقب !

والقصيدة قويةٌ فى موضوعها ، قويةٌ فى صوغها الأدبى ، قويةٌ فى وهجها الحماسى إذ صدرت عن فورة شاعر ، وغضبة عالم ، وإيحاء فنّان .

ومن أعجب ما يُؤثر عن الجارم فى هذا المجال أنه كرَّر معانيه لا لعجزٍ عن الابتكار ، بل ليؤكد أصالة العربية وانتماءها الشريف إلى كتاب الله ، وهو وَترٌ حلو الرنين يقرعُ فؤاد المؤمنين فيزيدهم إيمانًا ، ولا يملون الاستماع إليه كالأغنية الرائعة تُكرّر مثنى وثلاث ورباع ، وهى فى كل مرة تنفح العواطف ، وتُزكى الأحاسيس ، لقدْ سيطر حبّ القرآن ورسولُ القرآن على فؤاد الجارم فأخذ ينفّس عن هذا الحب بما يصعد من آيات التقدير ، وإن قالها من قبل فى صوغ آخر ، وحديثه حينئذ يؤدى دوره العاطفى لأنه يُشبُع رغبةً ، ويُطفىء غله اسمعْه يقول فى مثل ما قال من قبل(١) :

قـفْ عـلى الأطـلال واذكـرْ أمّة خلّـد الأطـلال مـأثور بكاهـا

(١) الديوان ٣٦٧ .

بعث الله بها نور الهدى ... مِنْ قُريش فاصطفاه واصطفاها
أشرق الصبحُ على الدنيا به ... بعدَ أن طال على الدنيا دجاها
قلدّ الفصحى حُلىً قدْسيةً ... فزهَاها من حلاها مازهاها
وبيانًا هاشميًّا لَوْ رَمَى ... قُلل الأجبال لا نهدت قواها
أسْهمٌ من كلمٍ مسنونةٍ ... جاهدتْ فى الله والله براها
كلمّا صاح بها فى طيبةٍ ... مستثيرًا رَددتها لابتاها
يزعمُ الشعر سفاهًا أنه ... لو عَفتْ عنه القوافى لحكاها
نزلَ القرآن بالضاد فلو ... لم يكنْ فيها سواه لكفاها
حسبُها أن صَوّرتْ من آيهِ ... معجزاتٍ عظمت أن تتناهى

وهو فى إحدى قصائده اللبنانية كان منصفًا كلّ الإنصاف حين اعترفَ لعلماء البلد الطيبّ بما بذلوه فى خدمة اللّغة العربية ، وكيف صَانَ لبنانُ الضّادَ فى لأْوائِها من شر ماحٍ أو مجتاح ، وكيفَ اصطلت اللّغة فى الهجير فلم تجد نجعة المرتاح إلاّ فى ظلال لبنان ، وكيف جمع رجاله زهر اللّغة فى معاجم عبقت بالأريج ، وقد حَموْا كتاب الله من إفك الآفكين ! الجارمُ هنا عربّى يسجل الفضل لأهله دُون تعصب لإقليم ، أو مَيْل إلى نعرة ، فشاعُر العُروبة يعدُّ كل مكان ينطق بالضاد مكانه ، ويتيه بما أحرز من مجد ، وكأنّ الشاعر نفسه صاحب المجد ، إنه يقول [1] :

لبنانُ صُنت الضاد فى لأوائها ... من شرِ ماحٍ أو هوى مجتاح
فى البدو لوحّها الهجير فلم تجدْ ... إلا ظلالك نجعة الملتاح

---

(١) الديوان ص ٤٨٤ .

جمعتْ رجـالك زهرهـا فى طاقـة عبَق الوجـود بنشرهـا الفـــواح
نظمُـوا لهـا عقداً يـرف شعاعـه بلآلئٍ مـلء العيـون فصـــاح

وقد أشرت إلى هذا من قبل ، ولكنى أكرّره ، ليعلم من لم يعلم أن العصبية الإقليمية داء عضال ، وأن دعاة العصبية خوارج ناشزون .

والجارم فى مراثيه لإخوانه أعلام المجمع يقررُّ أول ما يقررّ تضلّعهم فى اللغة العربية ، ووقوفهم على أسرارها المعجزة فى صحائف الشعر والبيان ، وإحاطتهم النّادرة بآثار الكبار من مؤلفى المعاجم ، فذلك عند الجارم فى المقام الأول لدى من يتصدر للذود عن اللّغة فى مجمعها الخالد ، وقد اكتمل ذلك للشيخ حسين والى الذى قال الجارم عنه (١) :

طوينـاه صيّـاد الأوابـد لم يـدع عزيزاً علـى الأفهـام غـير موثـق
لـه نظـرةٌ لم يحتملْ وقع سحرها غريبُ ابن حجر أو عويص الفرزدق
أحـاط بآثـار الخليـل بـن أحمـد إحاطـة فيّـاض البيـان مدقـق
إذا مَسَّ بالكـف الجبين تدافقـت جيـوش المعانـى فيلقـاً بعـد فيلـق

وقد صورّ الجارم موقفًا علميًّا رائعًا لشَيْخَيْنِ من شيوخ اللّغة يتحاوران بمشهدٍ من الشاعر ، هما أحمد الإسكندرى الذى قال عنه الجارم فى القصيدة ذاتها :

إذا مـا رَمـى عنـد الجـدال عَبـاءه رمـاكَ بسيْل يقذفُ الصخر مغرق
فجانـبْ إذا كـنت الحكـيم سؤاله وأطـــرقْ إلى آرائـه ثـــم أطـرق

وأمّا الثانى فحسين والى ، وكانَ النزاع العلمىّ فى مسألة لغوية صالتْ

(١) الديوان ص ١٧٠ .

فيها الآراء ، وتناضلت الأفكار ، وقد أحسنَ الجارم وصفَ ما شهد حين قال فى إجادةٍ رائعة عن حسين والى[1] :

ويومًا مـع الإسكنـدرى رأيتـه ... يُجاذبه فضـلَ الحديـث المشقـق

فهذا يرى فى لفظة غـير ما يـرى ... أخوه ويخْتـار الدليـل وينتـقى

فأعجبنـى رأىٌ سليـم ومنطـق ... يصـول على رأى سليم ومنطق

وقـد لوحـتْ أيديهـا فكأنهـا ... إشـاراتُ رايـات تروح وتلتقى

ولـم أرَ فى لفظيهْما نـبر عـائب ... ولـم أر فى عَينيهْما لحـظ محنـق

فقلتُ هى الفصحى بخيرٍ وإنها ... بأمثـال هذيـن الحفيين ترتقـى

إنّ ما قّدمْته من شعر الجارم فى الاحتفاء باللغة العربية يُنبىء عمَّا تركتُ مما قال فى هذا المجال ، ولئن افتخر الجارم بالعربية لغةً عذبة حيّة فإن العربية لتفتخر به شاعرًا قوى الحجة ناصع البيان .

(٢) الديوان ص ١٧١ .

حبٌّ مصر متغلغل فى قلبِ كلّ إنسان نشأ تحت سمائها ، ومَشَى فوق ترابها ، ونهل من نيلها وأصابَ من خيرها ، والشاعرُ أقدرُ على تصوير هذا الحب من سواه ، وقد قال الجارم عن شوقى فى رثائه إيّاه [1] :

كـانَ صبًّا بمصر كم هامَ شوقًا بُرباهـا وبثَّهـا أحزانَـه

هـى بستانـه فغـرد فيـه وحَبـا كـلَّ قلبـه بستانـه

يعشـق النيـل والخمائـل تهتزّ بشطيْـه خُضـرةً ولدانـه

يعشق النيل والجزيـرة تُغريـه وقـدْ لَـفَّ حولهـا أرْدانـه

يعشق البحر والسفائن تهفـو حولَـه كالحمائـم الظمآنـه

كلّ شىء بمصر يبهـر عينيـه جمـالاً ويستثـير حنانـه

وكأن الجارم يتحدث عن نفسه لا عن شوقى ، فهو فى شعره قد تغنَّى بمصر ، ووصَفَ نيلها وبحرها وسفائنها وبلادها ، وديوانُه ناطق بما قال عن

(١) الديوان ص ٢٩٥ .

لقاهرة ورشيد والإسكندرية وأسوان ، وما امتدّتْ قصائد الجارم فى كثير منها إلاّ حينَ ينظر حولَه إلى أثرٍ من آثار مصر فيمعن فى وصْفه ، ومن أعظم ما قال فى ذلك قصيدتُه الّتى أنشدها بقاعة المحاضرات العامة بالجامعة المصرية فى افتتاح المؤتمر الطبى العربى الثانى ، إذ وصَفَ مناخها ، وألمّ بتاريخها القديم والحديث إلمامَ الشاعر المصوّر ، فهو يقول عنها [1] :

قــد رآك الدهــرُ العتى فتـــاةً وهــو طفـلٌ يلهـو بطـوق الوليـد

أنتِ فى القفر وردة حولها الشــو ك وفـى الشــوك عــزة للـــورود

يلثـم البـحر مـنك طيب ثغـور بين عــذب اللمـــى وبين بـرود

نــشر النيـلُ فيـك تبرًا وأوْهــى لينـــه مـــن قســـاوة الجلمـود

قد حملت السراج للـناس والكـو نُ غَريـــق فـى ظلمـــةٍ وخمــود

لا نَـرى فيـك غـيرَ عهـد مجيـد قرنَتْـــه العُـــــلا بعهـــد مجيـــد

وجهـــودٍ تمثلـــتْ فى صُخــور وصخـــورٍ تشبّهـــتْ بجهــــود

وطبيعى أن يتحدث عن هذه الجهود الصّخرية فى عهد الفراعين العظام فيقول :

أيـــنْ رمسيـــسُ والكُـماة حواليْه مشـــاةٌ فى الموكـــب المشهـــود

مَـــلأ الأرضَ والســـماء فهــذِى بجنـــودٍ ، وهـــذه ببنـــود

وجموعُ الكُهَّـانِ تهتـفُ بالنــصر وتتلُـــو النشيـــد إثـــر النشيد

وحبّ مصر الفرعونية يتلاقَى فى جنان الجارم مع حبّ مصر الإسلامية ، لأنّ حبّ الأجداد لا يمنع حب الأحفاد ، وذلك أمرٌ بدهى لا يغفله غير الذين فى قلوبهم مرض ، إذ يُشيدون بالفرعونية بُغْضًا للعربية ودعوةً لتقطيع

(١) الديوان ص ٢٢ .

الوشائج بين تاريخ الأمّة الواحد ، وهؤلاء يكرهون الإسلام فى أعماقهم ، ولا يستطيعون أن يُفصحوا عمّا يكنُّون ، كيلا يكونوا مهزأة الشعب وألهياته ، فيتسترون بحب الفرعونية وحدها ، وقد ظهرت البغضاء من أفواهم وما تُخفى نفوسهم أكبر ، أمّا الجارمُ فقد سجّل إعجابه بالعهد الحضارىّ فى مصر الفرعونية مع ما سجّل من أمجاد مصر الإسلامية جنباً إلى جنب ، حيث انتقل فى سرده المتسلسل من العهد الأول إلى عهد عمرو بن العاص ، حين قدم مع دينه الحنيف ينشر لواء الحرية والتسامح والإخاء (١) :

أينْ عَمْرٌو فتى العروبة والإقدام ... أوْ فتَى مجاهــد بالعقـــودِ

لم يكن جيُشه لـدى الزحــف إلاّ ... قوةَ العـزم صُــوّرتْ فى جنـــود

قلّـةٌ دكـت الحصـــون وبثــتْ ... رِعدةً الرعب فى الخصمّ العديـد

أيْنما ركزوا الرمــاح تـرى العــدل ... مُقيمــا فى ظلهـــا الممــدود

وتـــرى الملـك أريحيـا عليـــه ... نَضرةٌ مــن سماحــة التوحيــد

وترى العلم يلتقى بهـدى الديـن ... علـــى منهـج ســوى سديــد

ملكــوا الأرض لــم يسيئـــوا إلى ... شعبٍ ، ولم يحكموه حكم العبيد

هــم جدُودى وأين مثلُ جدودى؟ ... إنْ تصـدّى مُفَـاخِـرٌ بالجـــدود

ولا يقولُ أحدٌ إن الجارم تتبع أحمد شوقى فى قصيدته الرائعة «كبرى الحوادث فى وادى النيل» ومطلعها (٢) :

هَمــتِ الفُـلكُ واحتواهـا المــاء ... وحَداهَــا بمــن تقــل الرجــاءُ

لأن التاريخ المصرى مِلْكٌ للملهمين جميعًا ، وليس لسابقٍ أن يحجز القول عن لاحق ، والتسلسلُ الزّمنى طريقٌ مستجد لمن يمضى بالتاريخ منْ

(١) الديوان ص ٢٢ .

(٢) الشوقيات حـ (١) ص ١٣ .

مبدئه عابرًا أحداثه حتّى يواجه عصره ، هكذا فعل شوقى ، وهكذا فعل الجارم ، وقد كنتُ أودّ أن أشير إلى روائع زاهية ، سطّرها الجارم فى قصيدته عن العيد المئوى لوزارة المعارف فى قصيدة أنشدها فى دار الأوبرا فى حشدٍ حافلٍ جَمَع عظماء مصر وكبار علمائها وأدبائها ، ولكن القصيدة بلغتْ مائة بيت ، والاختيار منها كالاختيار من غيرها أيضاً شاقٌ مرهق ، إذ يكون الأمر كما قال الشاعر القديم :

تحيّر فى الريــاض فليس يــدرى أيجنـى الــورد أم يجنـــى الأقاحـا

ونحن نعرفُ أنّ الشاعر رَشيدىّ ، نشأ فى رشيد ، وقد سَجّل لهذه المدينة ذكرًا خالدًا نثْرًا وشعرًا ، نثرًا حين كتب قصّته البارعة (غادة رشيد) مُتحدثًا عن قطعة مؤثرة من تاريخها القريب ، وشعرًا حين نظم ثلاث قصائد مطوّلات تتحدّث عن خواطره نحو أول بلدةٍ مسّتْ ترابها قدمُه ، وحلّ الشبابُ بها تمائمه كما يقول الشاعر القديم ، وهلْ ينسى الشاعر طُفولته الهانئة فى هذا البلد الجميل ، وقد نُشرت قصيدته التى مطلعها [1] :

أرشـيدُ لا جُـــرحٌ ولا إيـــلامُ عـــاد الزّمـــانُ وصحّـــت الأحلام

بالأهرام سنة ١٩٣٩ ، وكنتُ حينئذ طالباً بالسنة الثالثة بمعهد دمياط الابتدائى ، فرأيتُ الناسَ يردّدون القصيدة فى كل مجتمع أغشاه ، لأنّها لم تُعبّر عن عواطف الجارم نحو بلدته فحسب ، بل عبّرت عن عواطِف كلّ مصرى نحو بلدته ، لتشابه البلاد المصرية فى أكثر مجالاتها ، طبيعةً وزراعةً وسماءً ونيلاً مع فوارق يسيرة ولكنّها تتفق مع مدينة كدمياطٍ كنتُ أعيش بها إذ ذاك وألمسُ كيف وَقعتْ دمياط بيْن النيل والبحر كما وقعتْ رشيد ، يقول الجارم :

---

(١) ديوان الجارم ص ٣٠٨ .

يــا وردةً بيــن الرمــال نضــيرة　　تُزهَــى بهــا الأغصان والأكمام

يــا دُرةَ البحــر التــى بوميضها　　ضحك الصباح وأشرق الإظلام

أرشـيدُ يا بلدى ويا مَلهى الصبا　　بينْى وبـين مــدى الصّبا أعوام

أيــام لى فى كــلّ سرْحٍ نغـمةٌ　　وبكــلّ ركــنٌ وقْـفةٌ ولمــام

لمستْ حُنوّ الحب فيك تمائمى　　ورأيــتُ فيـك الدهر وهو غلام

ونشـأتُ فى ظـل النخيـل يهزّنى　　شــوقٌ إلى أفيائهــا وغــرام

أرَخــتْ شعــوراً للنسيـم كـأنما　　أظْلالُها تحــت الغــمام غمَــام

تهفــوُ ويمنعهــا الحياء فتنثنى　　كالغيــد رَوّع سربــها اللــوام

إنــا كَبرنــا يــا نخيــلُ وحبّنا　　بيْن الجـوانح شعــلة وضــرام

كـم طوقَتْ منك القدود سواعدى　　ولكَــمْ شفانــى من جناك طعام

وحين سافر الجارم إلى السودان لم يَفتْه أن ينفعل بمشاهد مصر العليا حينَ ركب القطار متوجّهًا إلى أسوان ، فجال بعينيه بين الحقول والقرى ، وقد تَرامتْ فى خطّها الطويل مبتدئةً من الجيزة إلى آخر مستقر القطار ، وكان الجارم هادئاً يشهد ما يراه ، ويصوّرهُ كما ارتسم فى نفسه مازجًا ما رأى بما أحسّ ، ومنتقلاً من صور الطبيعة إلى أشجان الخاطر ، تجد ذلك فى قوله(١):

تركتُ مصر وفى قلبى وقاطـرتى　　مراجُــل بلهــيب النـار يَغْلينــا

سِرْنا معــًا فبخار النـار يدفعها　　إلى اللقاء ونـارُ الشــوق تزجينــا

وللخمائل فى ثوب الـدجىَ خـدرٌ　　كأنــها تتــوقّى عيــن رائينــا

(١) الديوان ص ١٤١ .

كأنهـنّ العــذارى خِفْـن عاذلـة   فما تَعرَّضْن إلاّ حيث يمضينا

نستبعد القرب من شوق ومـن كلفٍ   ونستحـث وإنْ كـنّا مجدينـا

وكـم سألـنا وفى الأفـواه جَابَتُنـا   وفى السـؤال عَـزَاءٌ للمشوقينـا

حتى إذا ما بدت أسوان عـن كثـب   غنّى بحَمْد السرى والليل سارينا

وبعد أن فارق الجارم القطار إلى الباخرة ، أخذ يُبدع فى وصفها سابحة فى لجة الماء قائلاً :

لهـا ترانيمُ إنْ سارت مهمهمـةً   كالشعر يتبعُ بالتحريك تسكينا (١)

يـا حسنهـا جنّةً فى الماء سابحـة   تلقـى النعـيم بهـا والحـور والعينا

وما بى أنْ أكثر ، فأنقل ما وَصف به الجارم نهر النيل ، وتار يخه وما تردّد من أحداثه عبر الأجيال وحسبْى أن أشوّق إليه القارىء فيعود إلى مطالعتِه ، يقرأ ويستعيد :

ولا أدرى أكانَ الفضْل للمؤتمر الطبى الذى انعقد فى شتىّ البلاد فأوحى للجارم أن يتحدث عن كلّ مدينة انْعقد بها المؤتمر ، أمْ أن الجارم قد غَلبه شوقهُ إلى هذه العواصم المزدهرة فرأى أن يشغل بوِصْفها أعضاءَ المؤتمر استراحةً لهم من معاناة مُشكلات الطب ومعضلاته ، ومنْ ذلك ما تحدّث به عن الإسكندرية حين انعقد بها المؤتمر الطبى سنة ١٩٤٣ ، إذْ وصف موقعها الرائع وجوّها الفاتن ، ورياضها الضاحكة ، وألمّ بشذورٍ من تاريخها الخالد، وكانت الحرب العالمية الثانية حينئذٍ تنذر الثغر بالغارات الداهمة فلمْ ينس أن يُواسى المدينة بمشاركته الوجدانية ، وأن يصبّ لعنته على الباغين

---

(١) الديوان ص ١٤٢ .

المعتدين فى قوّة عاطفةٍ ألهبت الأكفّ بالتصفيق ، ومن فرائد هذه القصيدة[1] مخاطباً الإسكندرية :

عروسَ الشرق دُونك كل مهرٍ ... وأيْن لِمِثْلِ مهرك أن يُساما
بَهرت بنى الزمان حُلىً وحسنًا ... ودلّهت الأواخر والقُدامى
(فمكْسِكُ) مُشرق البسمات ضاح ... (وَرَمْلك) جنةٌ طابت مقاما
ترامى الموج فوقَ ثراه صبًّا ... وكم صبّ تمنى لو ترامى
(ونُزهتك) البديعة ما أُحيْلى ... وما أبهَى اتساقاً وانسجامًا
إذا انتشرتْ أزاهرها نثارًا ... جمعن الحسن فانتظم انتظاما
أبنت البحر والذكرى شجون ... إذا لمست فؤاداً مستهاما
ذكرتُ صباى فيك وأين منى ... صباى ؟ إلام أنشده إلاما ؟

وهكذا تُشرق مصر العزيزة فى صفحات الديوان شمسًا ساطعة وجنةً ذات حدائق وأنسام .

(١) الديوان ص ٢٧١.

يسوق المرجفون أغلاطاً واضحة بشأن المدائح التى ملأتْ فراغًا كبيرًا فى ديوان الجارم ، وأعلامُ الشعر فى عصر الجارم ، مثل شوقى، وحافظ ، وأحمد محرم ، ومحمد عبد المطلب ، والكاشف فى مصر ، وبشارة الخورى وشبلى الملاط فى لبنان ، والزهاوى والرصافى فى العراق ، بل إن المجددّين مثل مطران والعقاد وإيليا أبى ماضى وعلى محمود طه وإبراهيم ناجى ومحمود حسن اسماعيل قد أبدعوا فى المديح إبداعاً سَجَّلته دَوواينهم المشتهرة ، ولم يُؤاخْذهم أحد على ما قالوه ؟ فكيف يكون الجارم وحده موضع المَلامة ، أذكرُ أنى كتبت بحثاً خاصًّا بهذا الموضوع، أعاد الدكتور أحمد على الجارم نَشْرةُ فى كتاب (الجارم فى ضمير التاريخ) وأجدنى مضطرًّا إلى تلْخيصه فى هذا الكتاب ، لأنّ سفرًا يتحدث عن الجارم لابدّ أن يُبدّد كل شبهة تُحاكُ فى هذا المجال .

لقد كانت مدائحُ الشعراء فى العصور الماضية ذاتَ أجرٍ مادىّ يدْفعه الممدوح ، ولكنّها لم تكنْ كذلك فى عصر الجارم ، بلْ صارت تقديرًا خلقيًّا للمحامد ، ورسماً مصوّرًا ما يجبُ أن يرتفع إليه الرؤساء مِن صفاتٍ يقررها الشاعر الكبير ، فهو إذنْ حين يمدحُ متبوعٌ لا تابعٌ ، وقائدٌ لا مقود .

وحين أقرر أن من النقائض المُزرية أن يسخر الشاعر نفسه فى صوغ معانٍ

لا يَعتقد وجودها لقاءَ كسْبٍ مادى ، فإننّا نعلم أنّ الجارم لم يكنْ هذا الشاعر على الإطلاق ، فهو لم يتبوأ مناصبه الحكومية بمدائحه ولكنْ بكفاءته المشهودة ، كما لمْ يظفر برتبة البكوية لقصيدة قالها فى رئيس، بل لمنصبه مفتشاً أول فى وزارة المعارف ، كما ظفر بها المفتشّون الأوائل من أمثال حفنى ناصف، ومحمد حسين الغمراوى ، وأحمد العوامرى ، ومحمد أحمد جاد المولى ، ومحمد شريف سليم ، والجارمُ فى حقْله التربوى لم يكنْ دُونهم فى شىء ، وربّما أسهم بأكثر مما أسْهموا به فى مجال التربية والتعليم والتحقيق العلمى ، والتأليفِ الأدبى وقد حقّق الله أمنيته العزيزة حين قال :

قـد تمنيتُ كـلّ شىء علـى الله   سـوى أنْ أعيـش مـن أوزانـى [1]

فالظنّ بأن مدائحه عادتْ عليه بكسب مَا وَهْمٌ لا حقيقة له ، إنما الحق أنّه كان يسيرُ فى طريق معبد التزمَهُ السابقون ، وجَارَاهُ معاصروه ، وهو أحدهم ، وقد جَعل مدائحه باباً لنشر الفضائل ، ومعراجًا يرتقيه الممدوح ليسموَ بنفسه إلى ما يُريده له الشاعُر من هَمامة ومجدٍ ، ونحن نقرأ مدائح أبى تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبى وغيرهم . فنجدُ الكثير منها يشرئب إلى تخليد المثل الرفيعة . وتسجيل وقائع البطولة كما نجدُ الممدوحَ لايشغلُ من القصيدة قدْر مَا يشغلها حديث الشاعر عن نفسه ، إذ تصفُ شجونه متغزّلا ، ويصور رأيه فى الحياة ناقداً مجرّبًا ، فهو إذْن لاينكمش بإزاء الممدوح، وإذا وُجدَ مَن تضاءَل أَو اسْتخذى فليسَ بالشاعر الكبير الّذى أعْنيه ، وقد عَرف الجارم رسالة المدح فى التّوجيه الهادف ، وفى بَعْث الهمم . واستنهاضِ العزائم فكانت قصائده المادحة ذاتَ معانٍ جهيرة وأهدافٍ شريفة ، وقد يؤخذ عليه كما يؤخذ على سابقيه ، تَنقّله من غرضٍ إلى

(١) الديوان ص ٣٥٢ .

غرض، وتلك قضيّة نقدية لانُعالجها الآن ، ولكنّها تعرف مأتاها لدى الشاعر حين نراه يخلص للنهج القديم ، وقد حَافَظ على الإطار الشعرى فى جوّه النفْسى ، فجرى ماؤه صافيًا عذب المساغ .

وإذا قرأنا ديوان الجارم وجدنا مراثيه تكادُ تعدلُ مدائحه ، ومَعْنى ذلك أنّ الشاعرُ مَولَع بالنابهين من الأعلام يكسوهُم المدائح أحياناً ، وَيبِلّ ثراهم بالدموعِ مَوْتَى ، ومن بيْن هؤلاء أصدقاؤه ونظراؤه الذين وفى لهم الشاعر أجمل الوفاء ، وأنْصفهم أكرمَ الإنصاف ، وقد صَرّح فى بعض قصائده بأنّه حبَس الثناء عمّن لايستحقه ، ومنَعه من يتطّلع إليه دُون جدارة علمية أو خلقية ، وهو يقول فى ذلك[1] :

قد حبَسنا المديحَ عن كل مُستا ... مِ وأجـدْر بشعرنـا أن يُصَانَـا

لا تزيـُن العقـود جيدًا إذا لـم ... يـك بالحـسنِ قبلهـا مزدانـا

ربّ دُرٍّ لاقـى مـن الصـدر دُرًّا ... وجمـانٍ فى النّحـر لاَقـى جُمانَا

لـو مـدحنَا من لا يحقّ له المدح ... لَـوى الشعـرُ رأسَه فهجانـا

الرسـولُ الكريـم أنْطقَ حسّـا ... نـاً ولـولاهُ لم يكـن حسانـا

وابـنُ حمـدان لقّـن المتنبـى ... غُـرر المـدح فى بنـى حمدانا

يصدقُ الشعر حينما يصدق النا ... سُ فيشـدوُ بمدحهـم نشوانا

وإذا عـزت المكـارم ولَّـى ... مطـرق الـرأس واجمًا خزيانا

وهكذا ينظر الجارم إلى المكارم العالية والخلال الباهرة نظرة المحب الوامق، فيشدو طويلا مُسهباً ، لأن الجارم طويلُ النفس ، طلقُ العنان ،

(١) الديوان ص ٢٥٩ .

يُجارى الفحول من السابقين فيجْرى معهم فى كل مضمار . لقد شرُف الجارم كلّ الشرف بمدح رسول الله ﷺ فى قصيدتينْ ممتازتيْن ، وفيهما تتجلّى العاطفة الصادقة ، وكانَ الدكتور أحمد الجارم مُلْهمًا حين افتتح الديوان الأول بواحدةٍ منهما والثانية بالأخرى فكانتا براعة استهلال ليس بعدهما مِن براعة فمن الأولى قوله(١) :

نبىٌّ بـه ازدانْتَ أباطـح مكـة   وعـزّ بـه ثـوْرٌ وتـاه حـراءُ
دَعاهُمْ لربّ واحـدٍ جـل شأنـه   لَه الأمرُ يُولى الأمـر حـيث يشـاء
دعاهُمْ إلى القـرآن نُـورًا وحكمـة   ففيـه لأدواء الصّـدور شفـاء
دعاهـمْ إلى أن يَبْتَنُوا الملك راسخًا   لـه العـدلُ أُسٌّ والطمـوح بناء
فلباهُ مـن عُليا معـدّ غضافـر   كُماةٌ إذا اشتد الوغـى شهـداء
أساءُوا إلى الأسْياف حتى تحطّمتْ   ومـا مـرّةً للمستجـير أساءُوا
فهل تعلم الصحـراء أن رُعائِها   حمـاةٌ بآفـاق البـلاد رعـاءُ
وأنهـم إن زَاوَلوا الحكـم ساسـةٌ   وإن أرسلـوا أحكامَهـم فقهـاء
وقـد لمحوا مـن نور طـه شعاعةً   فكـلُّ ظـلامٍ فى الوجـود ضياءُ
نبىٌّ مـن الطهـر المصفّى نجاره   سـماحةُ نفـس حـرّةٍ وَصفـاءُ
وزهـدٌ لـه الدنيـا جناح بعوضة   وكلّ الـذى تحـت الهـباء هباء
تراه لـدى المحراب نسكـا وخشية   وتلقاهُ فى الميـدان وهـو قضـاءُ

ومن الثانية قوله(٢) :

محمـدُ أنقـذتَ الخلائـق بعدما   تنكـبت الدنيـا بهمْ وتنكبّـوا

---

(١) الديوان ص ١٨ .

(٢) الديوان ص ٢٨٤ .

وأطلقت عقلا كان بالأمس مُصفدا ... فَدانَ لـه سرُّ الوجود المحجب

وأرسَلْتَها من صيحة نبوية ... يمُور لها قلبُ الجبان ويرُعب

إذا كانَ صوت الله فى صيحة الفتى ... فأىّ عباد الله يُخشى ويُرهب

وبلّغت آيات روائعُ لفظها ... من الصبح أهدى أو من النجم أثقبُ

كأنَّ ، وما تغنى كأن ، فخلّها ... فإنّ من التشبيه ما يتصعب

وماذَا يقول الشعر فى آى رحمة ... لها الله يُملى والملائك تكتب

لقد كان الشعر فى مطلع هذا القرن تُرجمان الأحداث ، ولسان الوقائع الاجتماعية والسياسية فما ينشأ أَمْرٌ وشأن حتّى ترى الجرائد اليومية تفسحُ للشعر مكاناً مرموقًا بحيث تكونُ المقالة السياسية جوار القصيدة الشعرية فى صفحة واحدة، وبحيثُ ينتظر القارىء صيحة الشعر أكثر مما ينتظر تحليل النثر ، لذلك كان الشعراء أوْفىَ صلةً بزعماء النهضة السياسية والاجتماعية والدينية ، فمحمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وعلى يوسف، يُقدرون مزية الشعر وعظم تأثيره ، ولهمْ بالشعراء صلاتٌ أخوّية ووشائج فكرية ، تُشبه قرابة الدم ، وإذا كان شوقى وحافظ وأحمد محرم وأحمد الكاشف قد ترجموا أحداث زمانهم ، فإنّ الجارم جَرى معهم بعَض الشوط أوّلاً لاشتغاله بمهامّ التأليف العلمى ، ولكنّه حمل الراية حين خَلاَ الميدان من شوقى وحافظ ، بلْ قبلَ أن يخلو الميدان منهما لأنّ مدائحه الكثيرة لزعيم الأمة سعد زغلول كانتْ دليلَ حُبّ للأمة المصرية قبل أن تكون حُبًّا لزعيمها الخالد ، وقد أخطأ صديقى الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف حين غَفَل عن قصائد الجارم فى سعد ، وهى من الذيوع بحيثُ تنادى على نفسها فى ديوانه الكبير ، لقد كانَ سعد زغلول أقرب الزعماء إلى قلب الجارم ، فهو زعيمُ الأمة ، ولسانها الهاتف بآلامها وآمالها ، وقد مَدَحه الجارم بعِدّة قصائد

فى حياته، ورثاه بعدّةِ قصائد بعد مماته ، والشاعر لايكرّر القول مثنى وثلاث ورباع فى زعيمٍ ما إلاَّ إذا وجد لديه هواتف وجدانه ، ونبضاتِ قلبه ، فهو إذْ يمدحه إنما يمدح رمزًا مجسّدًا للآمال ، وحُلْمًا من أحلام السعادة ينهضُ للأمة بالبشارة والأمن والتفاؤل وقصائد الجارم فى سعد تحتاج إلى بحثٍ مستفيض لا مكانَ له فى هذه العجالة ، ولكنّى أشير إلى مطالع بعض القصائد السعدية ، كيلا يتأثر أحدٌ بما حكاه الأستاذ محمد فهمى عبداللطيف فى جريدة الأخبار ، وقد ردّ عليه الأستاذ بدر الدين الجارم بما شفى وكفى ، وسأنقل المطالع السعدية وفق ترتيبها فى الطبعة الثانية من الديوان .

ففى ص ١٠٤ قصيدة مطلعها ، بمناسبة نقل رفات الزعيم إلى ضريحه سنة ١٩٣٦ :

اكشفوا التربَ عن الكنز الدفين   وارفَعوُا الستر عــن الصبح المبين
وابعثــوهُ عسْجــدا مؤتلــقاً   زاد فى لألائــه طــول الســنين

وفى ص ١٥٨ قصيدةٌ بارعة أنشدها الجارم بين يدى سعد سنة ١٩٢١ أثناء اشتعال الثورة ومطلعها :

لبيّــكَ يــا مــلءَ القلـوب   وأثبــتَ الأبطـــال قلبـــا
ناديــتَ قومـــك للحيـــاة   فأقبلـــوا عَـــدْوًا ووثبـــاً

وفى ص ٢٥٢ قصيدة فذة ألقاها الشاعر بين يدىْ سعد فى حفل حاشد تهنئةً بنجاته من العدوان ومطلعها :

يا أبــا الأمــة يــا مَن ذكـرُهُ   مــلأ الدنيــا حديثــا عطرا
هزّ مصرا نــبأ فاضـــت لـــه   عــبرات القــوم تجرى مطرا

وفى ص ٤١٥ قصيدة جارمية قيلت بمناسبة رفع الستار عن تمثال سعد سنة ١٩٣٨ ومطلعها :

املأ الأفق مـن سنـاً وسنـاء وترفـق بهامـة الجـوزاء

واسمُ نحو السماء كالمثل الأعلى تجـلّى محلقـا فى السمـاء

وفى ص ٤٣٩ قصيدةٌ ألقاها الجارم عند زيارة سعد لوزارة المعارف سنة ١٩٢٤ ومطلعها :

اليـوم يومـك مصـر لله حمـد وشكـر

هذا غير رثاء الجارم لسعد حين انتقل إلى جوار ربه ومطلعه :

لا الدمع غاض ولا فـؤادك سـالى دخـل الحمـام عرينـة الرئبـال

فليتَ شعرى أىّ إخلاصٍ تفجَّر نبعه فى هذه القصائد ؟ إخلاصٌ حارٌّ للوطن المصرى قبل أن يكون لزعيم الوطن سعد ، وهل هذه الأمّداح الصادقة ، والمراثى الحارة تُحسب من شعر المناسبات الذى لايدّل على شعور صادق؟ حتى نُلْغى المدائح فى الشعر العربى كلّه بكلمة واحدة هى (المناسبات) دون أن نَعرفَ أنّ لكل شعر خَلَقَهُ الله مُناسبة ، وقد تكونُ مناسبةً نفسية خاصّة ، وقد تكون مناسبة جماعية عامّة ، وذلك إيجاز يتطلّب الإسهاب .

بقى أن أتحدثَ عن المدائح الملكية التى احتلّتْ حيزًا كبيرًا من ديوان الشاعر ، وكانتْ أظهر ما يؤخذ على الجارم لدى قوم ينظرون إلى السّطح القريب دون أن يتعمقوا الغور البعيد ، إذ أنَ من المؤكد أن الحاكم ـ أى حاكم فى بلد نام ـ لا يَظْهرُ من أعماله غير المرضى عنه ، فيعرف عنه أقل مما يُجهل ، فكم رأينا من أناس ـ قبل الثورة وبعدها ـ فازُوا بالثناء الحافل فى حياتهم ثم كشفت الأيام ما كان يجهله الشّعب من مآسيهم قبَل مماتهم ، فحارَ مَن مدَحُوهم من قبل ، ووصل الاكتئاب ببعضهم إلى درجة المرض المستعصى ، وما كانَ الجارم إلاّ شاعرًا رأى بعض الفضائل فتحدّث عنها كما

تحدث عنها زملاؤه الذين نحتفى بهم الآن ، وقد نظم الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل ديواناً خاصًّا فى فاروق سَماهُ ديوان الملك ، وهو عند خُصوم الجارم من النقّاد مِن كبار أعلام العصر ، ولم يقولوا عنه إنّه مدح فاروقاً بديوان مستقل ؟ لأنهم يعرفون أن الشاعر يتحدث عمّاً يَرى ولا يدْرى شيئاً عما يجهل ، فكيف نُجازى الجارم وحده بمالا نجازى به على محمود طه ، وناجى ، ومحمود حسن إسماعيل ، وعباس محمود العقاد ، وخليل مطران؟! أخشى أن تكونَ عروبةُ الجارم وإسلاميتُه . ، وتصدِّيه لأعداء العربية أهمّ أسباب هذا الهجوم الظلوم !

ومدائح الجارم الملكية لا تقتصر على الممدوح وحده ، فهى خواطر صادقة مستقاةٌ من الشعور الإنسانى نحو الفضائل الكريمة مدحًا ، والرذائل المستنكرة ثلْبًا ، مع مجالات بديعة لوصف الطبيعة ، واستلهام أحداث القريب والبعيد من وقائع التاريخ ، والتعبير عن أشواق النفس الرّاقية ، ومطامحها البعيدة ، وَهِى رسالةُ الشعر فى الأمة المتحضّرة ، ذات الحنين إلى الماضى الزاهر من عهود العزة والاستقلال ، أيضيع ذلك كلّه لأنّ عنوان القصيدة يُنبىء عن مدح فؤاد أو فاروق ؟! هذا وقد مدح المتنبى مَن أذلّه ، وأعطاهُ دينارًا واحدًا على القصيدة الممتازة ، ولم تَسْقط هذه القصيدة من ديوان المتنبى لأنّ الممدوح لم يستأهلها ! بل خُلّدت لما تضمنت من رائع الحكمة ، وساطع البيان ، ولعلّ القارىء يرجع إلى حديثى المبسوط فى كتاب (الجارم فى ضمير التاريخ) تحت عنوان (المدح فى شعر الجارم) ففيه بعض مالم أشر إليه فى هذا الحيز اليسير .

يقول الدكتور أحمد أمين [1] : « كان شعره مرحًا ضاحكًا ، حتى أُصيب بفقد ابنه ، وكان طالباً فى الهندسة ، فتلوّن شعِرُه بلونٍ حزينٍ باكٍ ، فكانَ يجيد كل الإجادة فى الرثاء والحسرة على فوات الشباب .

والحقيقة أن موتَ ولده قد هزّه هزًّا ، فظهر حُزنه فى كل رثاء قالَه من بعده، حتى آخر رثاء قاله قبل رثاء النقراشى ، وهو رثاء أنطون الجميل ، إذ افتتحه بحديثٍ باكٍ عن ابنه العزيز قال فيه [2] :

ضـربتْ بيننـا المنـونُ بِسُورٍ ... حجبتْـه العقـول عنهـا وعنـا
تتـلاقَى بـه الدمـوع حيارى ... وتغـوصُ الظنـون فيـه فتُضنى
حَجب السـورُ خلفـه لى رجاء ... خانَـه الدهـر فى صباه وأخنى
أسكتته قـوارع المـوت لحـنا ... ولَوتْـه زعـازع المـوت غصنـا
هـو فى البـدر حينما يطلعُ البد ... ر وفى الـروض حـينما يتثنـى
مـا بكـاءُ الأطفال أجدَى عليه ... لاَ ولا الـصبرُ والتجلـد أغـنى
فيه أسعـدتُ كـل باكٍ بدمعى ... وأغـرتُ الثكلـى الحزينـة جفنا
كـلما مـرتِ النـوادب صبحًا ... ضَرب القلـبُ بالجنـاح وحنا

---

(١) الجارم فى ضمير التاريخ ص ١١٥ .

(٢) الديوان ص ٤٧٥ .

يا شبابـاً فقـدت فيه شبابـى   أدرك الوالـه الشجى المعنـى

وموضع الشاهد فى هذه الأبيات قوله :

فيـه أسعدتُ كل بـاكٍ بدمعـى   وأعـرتُ الثكلـى الحزينةَ جَفْنَا

حيثُ كان الجارم يتذكّر ولده فى كل مصابٍ ، ويَنْضَحُ حزنَه على قوله فيمن يرثيه ، فيكادُ يترك حديثه عنه إلى حديثه عن ولده ، وقد أوضح عذره فى ذلك حين قال فى رثاء عبد الوهاب النجار :

أشرتـم بالرثـاء فهجمتـونى   وتعـذيب الذبيحـة لا يحـل (١)

فضـلّ الشـعر فى وأدى الثكـالى   وكـان إذا تحفـزَ لايضـل

ورثاء الجارم للنجار طغت عليه موجة من الحزن المبرح ، كَانت مثارَها ذكرى النجل الحبيب فى نفس والده فقد بدأ الشاعر قصيدته بقوله الشجىّ :

أقامـوا بعض يـوم واستقلّـوا   فطـار القلـب يخفق حيث حلُّوا

ومضى يتحدث عن نُعوش الموتى التى لا تهدأ فى صباح أو مساء ، وعن الدنيا التى لاتفى لأحد وإذا أعطتْ قليلاً أخذتْه ، وخَاضَ فى ضروبٍ من شعر الحكمة التى تَنْضحُ بها العاطفة ، لا التى يفتعلها العقل كما نَرى أحياناً لَدى بعض الراثين ، وهى حكمّة لا تقلّ براعة عن حِكم أبى العلاء وأبى الطيب ، ومنها قوله :

نعـودُ إلى التـراب كمـا بـدأنا   فكـلّ حياتنـا نقـض وغـزل

إذا بَدت الغزالـة ثـم غـارتْ   علمنـا أن هـذا العـيش ظـلّ

وكل ذلك أوار حارٌ محرق ، كان يتقدم جَذوةً حارة تشتعل فى صدر

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .

الوالد ، وقد كشفَ الرمادَ عن جمرها اللافح حينَ قال هذه الأبيات الرائعة حقًّا :

بنفسى فى الثرى غصْنا رطيبا ... يرفّ من الشباب ويخضئل

تُضاحكه لدى الإصباح شمس ... ويلثمه لدى الإمساء طل

كأنَّ حفيفه نضرًا وريقًا ... بسمْعى حلىُ غانية يصلّ

يميلُ به النسيم كأنّ أمًّا ... يميل بصدرها الخفاق طفل

إذا اشتبهتْ قدودِ الروض شكلا ... فليس لقده فى الحسن شكل

ضننتُ به وُجْدتُ له بنفسى ... وإن الحبّ تبذير وبخل

وكنت أشم ريح الخلد منه ... وأهنأ فى ذراه وأستظل

وقلت لعله يبقى ورائى ... بَدوْحته فما نفعت لعلّ

فسلْ عنه العواصفَ أىّ نوء ... أطاح به ، وأىّ ثرى يحلّ

نأى عنى وخلَّف لى فؤادا ... يذوبُ أسىً عليه ويضمحل

يبلّ على التداوى كل جرح ... وجرح القلب دامٍ لايبل [(١)]

وقد أُنشدت هذه القصيدة الباكية فى جمعية الشبان المسلمين وردّدتْها الإذاعة المصرية فى حينها ، وكان الجارم حينئذٍ يتولى إدارة دار العلوم ، فحدّثنى الأستاذ أحمد مخيمر ، وكان طالباً بالدار وقتئذ ، أنّ الجارم تلقّى طلبات كثيرة من أناس مرموقين ، ثكلوا أبناءهم كى يتكرّم بنسخة كاملة من القصيدة ، لتخفّف قراءتُها بعض أشجانهم ، وجاءَت سيدةٌ وقورٌ إلى مكتب الشاعر تَرجوهُ أنْ تُكتبَ أبياتُ ولده بخطّ الثّلث فى صحيفة لامعة ، لتُعلّقها

(١) الديوان ص ١٨٩ .

فى صدر صالونها ، فتُخفف بعض المصاب حين تَقرؤها مُرددة ، لأنها ثكلى تُعانى ما يعانى الجارم ، يقول الأستاذ أحمد مخيمر إن الشاعر الكبير جَمع لجنةَ الخطّ المكونّة من الطلاب فى الدار ، كى ينْسخوا بخطوطهم الجميلة أبيات الشاعر فى ولده ، ثم وزّعها على كلّ من اتصل به من المفجوعين ، وكأن الشعر العربى كله لمَ يحمْل مثل هذه الجذوة المشتعلة التى أثارتْ قلوب المحزونين كما قال مخيمر .

وقد يعجب القارىء حين يرى أن الجارم سَبق إلى هذا المعنى الكلّى فى أول قصيدةٍ قالها بعد رحيل ولده حينَ وقف ليرثى صديقه أبا الفتح الفقى فى حفل مشهود ، فقد قال فيما قال[1] :

قـد كـانَ لى أمل سقيتُ فروعه	بـــدمى وغذَّيت المنـى بعزاته
أحـنو علـيه مـن الهجير يمـسّه	ومـن النسيم يهزّ مـن أسلاتـه
وأذوُد عـنه الطير إن حامت على	زهـرٍ يُضِىءُ الأفـق فى عذبـاتـه
حتّى إذا قـويتْ لـدان غصونـه	واستحصد المرجـوُّ مـن ثمـراته
وأخذتُ أستجلى السنا من نوره	وأشمّ ريـح الخلـد مـن نفحاته
وأفـاخـر الـزراع أن غراسَهـم	لم يـزكُ مثـلَ زكائــه ونباتــه
عصفـتْ بـه هـوج فخر معفرا	وَجَنـى عليـه الحين قبـلَ جناتـه
ووقفتُ أنــظر للحطـام محطمًا	متـفتّتَ الأفــلاذ مثــل فتاتــه

فالإطار العامّ هو الإطار العام ، والمعنى النفسىُّ فى هذا الشجى المتواصل، المتّفق فى تصويره الوجدانى أنّ الشاعر لم ينسَ صُورة الغصن المزدهر الناضر وقد راق لعينه . وسلب قلبه وعقله ثم عصفتْ به الريح

---

(١) الديوان ص ١٥٥ .

فحطّمته كما حطّمتْ قلب الشاعر ! وللناقِد المتحرج ، أن يقول إنّ الصورة مكررّة ! ولكنْ لماذا كانت مكررّة ؟ وما صِلَتها بالنّفس التى لا تبرح تَذكُرها على مّر الغداة وكر العشى ؟

إذا أجابَ النّاقد على هذا السؤال فقد أراح واستراح .

ثم رحلَ صديق الشاعر وزميله فى البعثة الإنجليزية الأستاذ محمد أمين لطفى ، وبكاهُ الشاعر بكاءً دامعًا ، ولكنَّ حزن الوالد لم يفارقْه فى مأساة صديقه ، فقدِ قال عن نفسه فى هذه المرثية مخاطبًا صديقه الراحل(١) :

رَمتنى الليالى قَبل نعيك رمية عرفتُ بها كيف القلوب تُقطّع

نِصالٌ حداد قد ألمت لحملها وأعلمُ أنى هالك حين تُنزع

فلمّا رمانى سهمك اليوم وانطوت عليه جنوبٌ خافقات وأضلع

أمنتُ على قلبى السهام فلم يعدْ به بعد خطب الأمس واليوم موضع

وفى القصيدة بيتان خالدان لاينساهما القارىء لأنهما يعبّران عن حقيقة مريرة أجاد الشاعر تصويرها حين قال(٢) :

إذا برعَ الطبُّ الحديثُ فقل له يدُ الموت أمضَى من يديكِ وأبرعُ

وإن الفتى ماضٍ وماض طبيبهُ وعائدهُ من بعده والمشيِّعُ

والأسى يبعث الأسى ، فقد رُزىء الشاعر الكبير الأستاذ عزيز أباظة فى زوجته الحبيبة وبكاها بديوان مستقل ، أهداه للأستاذ الجارم ، وقرأه الوالد الثاكل فهاجَ شجونه ، وحرّكَ ما كمن من لوعته، فنظمَ قصيدةً مُواساةٍ بدأها بتصوير ما أحسّه من شجون عزيز أباظة الملتهبة فى قصائده ، وأجادَ

(١) الديوان ص ٤٣٥ .

(٢) الديوان ص ٤٣٨ .

الجارم إجادة منتظرة من مثله ، ثم عَطف على وَجْده الخاصّ ، فقال مخاطبًا صاحبه[1] :

قد بَعَثْتَ الشجون فى كلّ صدر	وأثرتَ المكنون من زَفراتِه
بىَ جرحٌ مضىَ عليه زمان	حِرتُ فى أمره ، وأَمْر أساته
كلما صاح نادبٌ هاج شكو	اهُ ومسّ الأليم من ندباته
أنا أبكى لكلّ باكٍ ونفسى	حسراتٍ تذوب فى حسراته
بائع الصبر إنْ يكنُ عشر مثقالٍ	بأغلى ما فى الحياة فهاته
كلنا مسَّه من الدهر ظفرٌ	آه من ظفره ومن فتكاته
وأدَتْنا بناتُه برزاياها	ومَن ذا يَسْطيعُ وأْدَ بناته
فكرِهْنا حتى النعيم لأنا	قد رأَيْنا اجتماعَه لشتاته
ما حياةُ المحب بعد حبيب	قَبَس النورَ والهدى من حياته
حسبُه أنّه إذا رامَ قُربى	لم يجدْ للوصول غيرَ مماته !

وقد تركتُ قصائدَ أخرى من عيون الرثاء الجارمى ترمُز إلى العزيز الراحل تلويحًا وتصريحًا ، وَفيها اخترتُ كفاءٌ ، أى كفاء .

---

(١) الديوان ص ٢٢٨ .

عـــن المـــاضى

لِلَّــهِ أَيَّــامُنَـا الأولَى الَّتــى سَلَفَــتْ ... وَلِلصَّبَابَــةِ مَيْـــدَانٌ وَمَيْـــدَانُ
وَالحُبُّ كَـــالطَّيْرِ رَفَّــافٌ عَلَى فَنَـــنٍ ... لَــهُ إِلَى الإلْــفِ تَغْــرِيــدٌ وَتَحْنَــانُ
بَدَتْ لَهُ جَارَةُ الـوَادِى الخَصِيبِ ضُحًا ... كُـــلُّ الأحِبَّـــةِ فِى لُبْنَــانَ جِيرانُ
رَنَـــا لَهَا فَتَهَادَتْ فِى تَــدَلُّلِهَـــا ... العَيْنُ غَـاضِبَــةٌ ، وَالقَلْـبُ جَـذْلانُ
وَأَعْــرَضَـــتْ وَإِبَـاءُ الغِيـدِ لُعْبَتُهَـــا ... فَكُلَّمَا اشْتَــدَّ عُنْفًـــا فَهْــوَ إِذْعَــانُ
هَـزَزْتُ أَوْتَـارَ شِعْـرِى حَـوْلَ شُرْفَتِهَـا ... كَمَا تَــرَنَّــمَ بِــالأسْحَــارِ رُعْيَــانُ
شِعْـــرٌ مِـــنَ اللهِ تَلْحِينًـــا وَتَهْيِئَـــةً ... لاَ النَّـاىُ نَاىٌ ، وَلاَ العِيـدانُ عِيـدانُ
شَـــدَا لَهَا فَــرَأَى لَيْــلُ الهَوَى عَجَبًـا ... وَلَهِى يُجَاذِبُهَا الأشْـــــــوَاقَ وَلَهَانُ
رَيَّـا حَـوْتَ فِتْنَـةَ الـدُّنْيَا غَـلاَئِلُهَـا ... يَضُمُّهَـا شَــاعِـرٌ لِلْغِيــدِ صَـدْيَــانُ
فَتَنْتُهَـــــا حِينَمَا هَمَّتْ لِتَفْتِنَنِـــــى ... وَالشِّعْــرُ لِلخَفِـرَاتِ البِيـضِ فَتَّــانُ
كَـانَ الشَّبـابُ شَفِيعِـى فِى نَضَـارَتِـهِ ... الــزَّهْـرُ مُــؤْتَلِـقٌ ، وَالعُـودُ فَيْنَــانُ
مَـــاذَا إِذَا لَمَحَتْنِـــى اليَـــوْمَ فِى كِبَرِى ... وَمِــلْءُ بُـرْدَىَّ أَسْقَــامٌ وَأَشْجَــانُ ؟

الشــريـــــد

أَطَلَّــتِ الآلاَمُ مِـــنْ جُحْـــرِهِ ... وَلُفَّــتِ الأَسْقَــامُ فِى طِمْـــرِهِ

بُـــرْدَتُهُ اللَّيْــلُ ، عَلَى بَـــرْدِهِ ... وَكِنُّــهُ الْـــقَيْظُ ، عَلَى حَــرِّهِ

مُـــشَـــرَّدٌ يـــأْوِى إِلَى هَــمِّهِ ... إِذَا أَوَى الــطَّيْــرُ إِلَى وَكْــرِهِ !

مَــاذَاقَ حُلْــوَ اللَّثْــمِ فِى خَــدِّهِ ... وَلا حَنَــانَ الْمَسِّ فِى شَعْـــرِهِ

وَلاَ حَـــوَتْهُ الأُمُّ فِى صَـــدْرِهـــا ... وَلا أَبٌ نَـــاغَـــاهُ فِى حِجْـــرِهِ

قَـدْ صَبَــرَ النَّــفْــسَ عَلَى مَابِهَا ... وَانْتَظَــرَ الـــمَوْعُودَ مِــنْ صَبْرِهِ

الله فى طِفْــلٍ غَـــزاه الـــضَّنَى ... بِــأَدْهَــمِ الَــخَطْبِ وَمُغْبَــرِّهِ

فى ظُلُمَــاتٍ ، مَــوْجُــهَا زَاخِــرٌ ... كَــأَنَّـــهُ ذُو النُّـــونِ فى بَحْـــره

وَالنَّـاسُ بـالشـاطىء مِـنْ غـافِلٍ ... أَوْ سَـاخِـرٍ أَمــعَنَ فى سُــخْـرِهِ

والـمَــوْجُ كَالـذُّوبانِ حَـوْلَ الفَتَى ... يســـدُّ أُذْنَ الأفْــقِ مِـــنْ زَأْرِهِ

نَــادَى ، وَمَــا نَــادَى سِـوَى مَـرَّةٍ ... حَتَّــى طَــوَاهُ اليَــمُّ فِى غَمْـــرِهِ

تَظُنُّـــهُ طِفْـــلاً ، فَــإِنْ حَقَّقَـــتْ ... عَيْـنَاكَ ، لَـمْ تَعْثُــرْ عَلَى عُشْــرِهِ

كَــأَنَّـــهُ الشَــكُّ إِذَا مـــا مَشَـــى ... أَوْ مـــا يَـــرَى النَّــائِمُ فِى ذُعْـــرِهِ

طَغَـى بِـهِ الـجُوعُ ، فَفِـى دَمْعِـهِ ... مَـــافَعَـــلَ الـــجُوعُ ، وَفِى نَبْرِهِ

الأيـــام

تُـقَتِّلُنا الأيـَّامُ وَهْـىَ حَيَـاتُنـا ... وتُعْطِى ، وَمَا أبْصَـرْتُ غَيْـرَ سَليبِ

فَما حِيلَتِى إنْ كَانَ بِالـمَـاءِ غُصَّتِى ... وَدَائِى إذَا عَـزَّ الـدَّواءُ طَبِيبِـى ؟

كَـأنَّ حِبـالَ الشَّمْسِ كِفّةُ حَـابِـلٍ ... تُحِيـطُ بِنَا مِـنْ شَمْـأَلٍ وَجَنُوبِ

نَـرُوحُ بِها ، وَالموْتُ ظَمْـآنُ سَـاغِبٌ ... يُـلاحظُنَـا فِى جَيْئَـةٍ وَذُهُـوبِ

عَلَى الشَّفَـقِ الـمُحْمَرِّ مِـنْ فتَكاتِـهِ ... بَقَـايَـا دَمٍ لِلـذَّاهِبِينَ صَبِيـبِ

هَلْ الـدَّهْرُ إلاّ لَيْلَـةٌ طَالَ سُهْـدُها ... تَنَفَّسُ عَـنْ يَوْمٍ أَحَـمَّ عَصِيـبِ ؟

وَلَيْـسَ تُرابُ الأرْضِ غَيْـرَ تَـرائِبٍ ... وَغَيْـرَ عُقـولٍ حُطِّمَـتْ وَقُلـوبِ!

سَلُوا وَجَناتِ الغِيـدِ فِى ذِمَّةِ الـثَّرَى ... أَتُـزْهَـى بِحُسـنٍ أَمْ تُـدِلُّ بِطِيـبِ؟

وَكَانَـتْ شِبَاكًا لِلعُيونِ فَـأصْبَحَتْ ... وَلَسْـتَ تَـرَى فِيهِـنَّ غَيرَ شُحُـوبِ

عبرة بالغة

إنَّما نَحْـنُ فِى الْـحَياةَ إِلَى حِيـ ـنٍ شَبَـابًـا وَفِتْيَـةً وَكُهُـولاَ
نَتَمَنَّـى الْـحَيَاةَ جِـدَّ تَـمَـنٍّ وَهْـىَ لَـيْسَتْ إِلاَّ مَتَـاعًـا قَلِيـلاَ
وَقَـفَ الطِـبُّ حَـائِرًا وَ الْـمَنَايَا سَـاخِـرَاتٍ يَغْتَلْـنَ جِيـلاً فَجِيـلاَ
دَوْرَةُ الْأَرْضِ كَـمْ أَمَـدَّتْ قَبِيـلاً بِحَيَـاةٍ وَكَـمْ أَبَـادَتْ قَبِيـلاَ
نَضْـرَةٌ فِى أَزَاهِرِ الصُبْـحِ تُـمْسِى بَعْـدَ لأْيٍ تَصَـوُّحًا وَذُبُـولاَ
رُبَّ قَصْـرٍ قَدْ كَـانَ مَلْعَبَ أُنْسٍ صَـيَّـرَتْهُ الْأَيَّـامُ رَبْعًـا مُحِيـلاَ
وَفَتـاةٍ طَـوَى مَحاسِنَهَـا الدَّهْـ ـرُ بَنَانًـا غَضًّـا وَخَـدًّا أَسِيـلاَ
نَـأْكُـلُ الْأَرْضَ ثُـمَّ تَـأْكُلُنَـا الْأَرْضُ دَوَالَيْـكَ أَفْـرُعًـا وَأُصُـولاَ

الشبـــاب

هَاتِ عَهْدَ الشَّبَابِ إنْ غَاصَ فِى المَا ... ءِ وَإنْ غَـابَ فِى السَّمَاءِ فَهَاتِـهْ !
هَمَسَـاتُ الشَّبابِ فِى النَّفْسِ أَحْلَى ... مِنْ حَدِيثِ الهَوَى وَمِنْ هَمَسَاتِهْ
نَـارُهُ تَطْـرُدُ الهُمُـومَ فَتَمْضِـى ... خَافِقَاتِ الجَنَانِ مِنْ جَمَرَاتِهْ
نَـارُهُ تَصْهَـرُ العَـزِيمَـةَ سَيْفًـا ... تَتَـوقَّى السُّيُـوفُ وَقْـعَ شَبَاتِـهْ
مَـا أُحَيْلَى وُثُـوبَـهُ وَهْـوَ مَـاضٍ ... يَتَحَـدَّى الـزَّمَـانَ فِى فَتَكَاتِـهْ
نَفَحَـاتُ الشَّبَابِ أَيْـنَ تَوَلَّـت ؟ ... لَهْفَ نَفْسِى عَلَى شَـذَى نَفَحَاتِـهْ !
قَـدَحٌ قَـدْ حَلَـتْ أَوَائِلُـهُ رَشْـــ ... ـــفًا ، وَذُقْنَا المُرَّيْـنِ فِى أُخْرَيَاتِهْ
مَـا أَرَانِـى مِـنْ غَيْرِهِ غَيْرَ ثَـوْبٍ ... ضَـمَّ أَرْدَانَـهُ عَلَى عِـلاَّتِـهْ

رُبَّ شَيْـخٍ فِى عَـالَمِ الطِّـبِّ حَـىٌّ ... وَيَـرَاهُ الـزَّمَـانُ مِـنْ أَمْـوَاتِـهْ
الشَّبَـابُ الشَّبَابُ نُـورٌ مِنَ اللَّـــ ... ـــهِ وَرِيـحٌ تَهُبُّ مِـنْ جَنَّـاتِـهْ

فقد الأليف

فَقَدْنَاهُ ، فِقْدانَ الأليفِ أليفَهُ يُصِيحُ بِهِ فِى كُلِّ رَوْضٍ وَيَسْجَعُ
يُسَائِلُ عَنْهُ الأُفْقَ ، والطَّيْرُ حُوَّمٌ وَيَسْتَخْبِرُ الأمْوَاهَ ، وَالطَّيْرُ شُرَّعُ
يَدِفُّ فَيَحْوِى الأرْضَ مِنْهُ تَأَمُّلٌ وَيَعْلُو فَيَعْلُو النَّجْمَ مِنْهُ تَطَلُّعَ
يَظُنُّ حَفِيفَ الدَّوْحِ خَفْقَ جَناحِهِ إذَا هَمَسَتْ مِنْهُ غُصُونٌ وَأفْرُعُ
وَيَحْسَبُ تَحْنَانَ الغَدِيرِ هَدِيلَهُ فَيَخْبِسُ مِنْ زَفْراتِهِ ثُمَّ يَسْمَعُ
لَقَدْ مَلَّتِ الغَابَاتُ مِمَا يَجُوسُهَا وَمَلَّ صِماخُ اللَّيْلِ مِمّا يُرَجعُ
لَهُ أنَّةُ المجْرُوحِ أعْيَا طَبِيبَهُ وَضَجَّ لِمَا يَشْكُو وِسَادٌ وَمَضْجَعُ

تُضاحِكُهُ الآمَالُ حِينًا فَيَرْتَجِى وَيَجْبَهُهُ اليَأْسُ العَبُوسُ فَيَخْشَعُ
لَدَى كُلِّ عُشٍّ صَاحِباهُ ، وَعُشُّهُ خَلِيٌّ مِنَ الأُلاَّفِ قَفْرٌ مُصَدَّعُ
عَزَاءً عَزَاءً أيُهَا الطَّيْرُ إنَّما لِكُلِّ امرىءٍ فِى سَاحَةِ العُمْرِ مَصْرَعُ

ليل الأعمى

هُوَ جُبٌّ أعِيشُ فِيهِ حَزِينًا كَاسِفَ النَّفْسِ دَائِمَ الْبَلْبَالِ

مَارأَتْ بَسْمَةَ الشُّمُوسِ زَوَايَا هُ ، وَلا دَاعَبتْ شُعَاعَ الْهِلالِ

فَإذَا نِمْتُ فَالظَّلامُ أمامِى أَوْ تيَقَّظْتُ فَالسَّوَادُ حِيالِى

أتَقَرَّى الطَّرِيقَ فِيهِ بِكَفِّى بَيْنَ شَكٍّ وَحَيْرَةٍ وَضَلالِ

وَأُحِسُّ الهَوَاءَ فَهْوَ دَلِيلِى عَنْ يَمِينِى أَسِيرُ أوْ عَنْ شِمالِى

مَنْ لِسَارٍ بِلَيْلَةٍ طُولُهَا العُمْـ ـرُ ، يَجُوبُ الْأَوْجَالَ لِلْأَوْجَالِ؟

عِنْدَ صَحْرَاءَ لِلأعَاصِيرِ فِيهَا ضَحِكُ الْجِنِّ أوْ نحِيبُ السَّعَالِى

رَهْبَةٌ تَمْلأُ الْجَوَانِحَ رُعْبًا وَأَدِيمٌ وَعْرٌ كَحَدِّ النِّصَالِ

وَامتِدَادٌ كَأنَّهُ الأمَلُ الطَّا ئِشُ مَاضَاقَ ذَرْعُهُ بِمُحَالِ

فِى هَجِيرٍ مَا خَفَّ حَرٌّ لَظَاهُ بِنَسِيم ، وَلا بِبَرْدِ ظِلالِ

مَلَّ عُكَّازُهُ مِنَ الضَّرْبِ فِى الأرْ ضِ عَلَى خَيْبَةٍ وَرِقَّةِ حَالِ

يَرْفَعُ الصَّوْتَ لا يَرَى مِنْ مُجِيبٍ أَقْفَرَ الكَوْنُ مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ!

ذكريات رشيد

جَدِّدِي يارَشِيدُ لِلْحُبِّ عَهْدَا ... حَسْبُنَا حَسْبُنَا مِطالاً وَصَدَّا
جَدِّدِي لَمْحَةً مَضَت مِنْ شَبَابٍ ... مِثْلَ زَهْرِ الرُّبَا يَرِفُّ وَيَنْدَى
وَابْعَثِي صَحْوَةً أغارَ عَلَيْها الشَّـ ... ـيْبُ ، حَتَّى غَدَتْ عَناءً وَسُهْدا
ذِكْرَيَاتٌ مَضَتْ كَأَحْلامِ وَصْلٍ ... وَسُدًى نَسْتَطِيعُ لِلْحُلْمِ رَدَّا
وَالْهَوَى أَمْرَدُ الْمُحيَّا يُنَاغِي ... فِتْيَةً تُشْبِهُ الدَّنَانِيرَ مُرْدَا
وَيْحَ نَفْسِي ، أفْدِي الشَّبابَ بِنَفْسِي ... وَجَدِيرٌ بِمِثْلِهِ أنْ يُفَدَّى
إنْ عَدَدْنَا لِيَوْمِهِ حَسَنَاتٍ ... شَغَلَتْنَا مَسَاوِئُ الشَّيْبِ عَدّا
جَذْوَةٌ لِلشَّبَابِ كَانَتْ نَعِيماً ... وَسَلامًا عَلَى الفُؤادِ وَبَرْدا
قَدْ بَكَيْنَاهُ حِينَ زَالَ لأنَّا ... قَدْ جَهِلْنَا مِنْ حَقِّهِ مَايُؤَدّى
وَقَتَلْنَاهُ بِالْوَقَارِ ضَلالاً ... وَهُوَ مَاجَارَ مَرَّةً أوْ تَعَدَّى
مَا عَلَيْهِمْ إنْ هَامَ عَمْرٌو بِهِنْدٍ ... أوْ شَدَا شَاعِرٌ بِأَيَّامِ سُعْدَى !؟
شُغِفَ النَّاسُ بِالْفُضُولِ وَبِالْحِقْـ ... ـدِ ، فَإِنْ تَلْقَ نِعْمَةً تَلْقَ حِقْدَا

دعوة للكفاح

رُبَّ أَرْضٍ لِلْغَافِلِينَ مَوَاتٌ ... وَهْيَ لِلْعَامِلِينَ غَيْرُ مَوَاتِ

إِنْ تَطَلَّعْتَ لِلرَّغَائِبِ فَابْذُلْ ... تِلْكَ فِي الدَّهْرِ سُنَّةُ الكَائِنَاتِ

لَكَ كَفَّانِ ، تِلْكَ تُعْطِي وَهَذِي ... تَتَلَقَّى مَثُوبَةَ الْحَسَنَاتِ

تَرْتَجِي الْحَصْدَ ثُمَّ تَقْعُدُ فِي الشَّمْـ ... ـسِ ، لَكَ اللهُ يَا أَخَا التُّرَّهَاتِ

ضِلَّةً تَطْلُبُ الزُّلَالَ مِنَ النَا ... رِوَتَبْغِي غَضَارَةً مِنْ فَلَاةِ

لَيْسَ يَجْنِي مِنَ السُّبَاتِ سِوَى الأَحْلَامِ ... فانْهَضْ ، وُقِيتَ شَرَّ السُّبَاتِ

***

وبعد

فهذا ما استطعت أن أقوله فى نطاق ماحدّد لى من الصفحات ، ولعلّى وفقت فيما أردت من إعطاء صورة صادقه للشاعر الكبير من خلال ديوانه الأثير

د . محمد رجب البيومى

مشاهير الشعراء العرب

للناشئين والشباب

يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدم للشباب والناشئين هذه المجموعة من أعلام الشعر العربى، الذين عاشوا فى عصور وبيئات مختلفة، وتركوا لنا بصمات واضحة فى مسيرة الشعر العربى. يقدم كل كتاب من هذه السلسلة ترجمة موجزة ووافيه للشاعر وعصره، والتيارات الأدبية التى أثرت فى شعره، كما يلقى الضوء على جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية، مع الإلمام بسمات كل شاعر والتعريف بالبيئة التى نشأ فيها، والمدرسة الشعرية التى يمثلها أو الاتجاه الشعرى الذى ينسج على منواله، مع وضع نماذج ومختارات من شعره.

لقد تم اختيار هذه المجموعة من الشعراء المطبوعين المبدعين على أيدى مجموعة من الكُتّاب المتخصصين فى هذا المجال - وجدير بكل شاب أن يلم بحياتهم، وشعرهم الجيد الراقى الرفيع الذى يتغلغل فى النفوس ويهز الوجدان.





تصميم ورسوم

محمد حجى